قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

التفسير: يبين الله تعالى هنا أن هناك سبيلاً واحدًا لبقاء الإنسان، وهو أن يسلك الطريق المستقيم، أما إذا انحرف عن سواء السبيل فيدرك كل عاقل أنه هالك لا محالة، عاجلاً أم آجلاً. إذ من المحال أن يسلك المرء طريقًا خاطئًا، ويتجه إلى هوة الدمار ثم ينجو من السقوط فيها. إن الذي يسلك الطريق الخاطئ ثم يظن أنه ناجح فملثه كمثل جحا. يقال إن شخصًا رأى جحا في شجرة وهو يقطع الغصن الذي هو جالس عليه. فقال لـــه: لا تفعل هكذا وإلا سقطتَ على الأرض. فقال لـــه: كيف عرفت أني سأسقط على الأرض؟ هل أنت نبيّ؟ اذهبْ لشأنك. فقال الرجل إن الأمر واضح جلي. إنك تقطع الغصن الذي أنت جالس عليه، وحين ينقطع تمامًا سيسقط بك على الأرض حتمًا. قال: اتركني وشأني، فقد رأينا كثيرًا من الناس يدّعون بمثل هذه الدعاوى. فذهب الرجل، ولما انقطع الغصن وسقط جحا على الأرض، جرى وراء الرجل الذي حذره من مغبّة عمله. فلحق به وأخذ يعتذر إليه ويقول: سامحْني يا سيدي، فلقد أخطأت خطأ كبيرًا إذ لم أعمل بنصيحتك. لقد أيقنت الآن أنك نبي. فقال الرجل: إنني لست بنبي، بل هذا ما يمليه علينا العقل والمنطق، وقلت ما دام هذا يقطع الغصن الذي هو جالس عليه فلا بد أن يقسط أيضًا. فقال جحا: كلا يا سيدي، إنك نبي بكل تأكيد، فأرجوك أن تخبرني الآن متى ستحين وفاتي؟ قال: كيف أعرف يوم وفاتك؟ فألحّ عليه إلحاحًا شديدًا، فقال الرجل لكي يتخلص منه: تموت في اليوم الذي ينـــزف الدم من فمك. وكان جحا حائكًا، وذات يوم كان يسوي الخيوط للحياكة، فدخلت قطعة صغيرة من الخيط الأحمر في فمه واحمرّت به أسنانه. فظنَّها المسكين دمًا وقال لزوجته: لقد حان موتي، فجهّزي لكفني ودفني.

فمثل هؤلاء كمثل جحا الغبيّ. إذ ما دام الأمر الواقع يؤكد أنهم سائرون في طرق تؤدي إلى هوة الهلاك، فكيف يعترضون، مثل جحا الغبي، على من يقول لهم إنكم هالكون حتمًا؟ لو نظرتَ إلى روسيا وأمريكا لوجدتهما ندَّين، ولو اصطدمت هاتان القوتان ووقعت الحرب بينهما الآن لكانت النتيجة دمار الاثنتين كما دُمّرت ألمانيا وإيطاليا وفرنسا في الحرب العالمية الثانية. وهذا ما ينبه الله إليه في هذه الآية ويقول إن الذي ثبت ضلاله لا يمكن أن يكون حول مصيره رأيان. فعليكم أيها الكافرون أن تنظروا هل أنتم في ضلال أم لا؟ فإذا كنتم في ضلال فلا شك في صحة قولنا بأنكم الهالكون حتمًا في يوم من الأيام مهما كانت قوتكم وشوكتكم، لأنكم سائرون في طريق الخطأ والهلاك.

أما قول الله تعالى ﴿فليَمْدُدْ لـه الرحمن مَدًّا﴾ فهو خبرٌ ورد في صيغة الأمر من أجل التأكيد. ومن أساليب العربية إيراد الخبر بصيغة الأمر أحيانًا بغية التأكيد. والمعنى أن الله الرحمن سيمنح هذا الشخص مزيدًا من المهلة حتمًا، لكي تراه الدنيا أولاً في قوته وشوكته وأبّهته لفترة طويلة، ثم تشاهد هلاكه الذي سيكون نكالاً للآخرين، حتى تعترف بأهمية هذه المعجزة.

وكأن الله تعالى يقول إن أحوال هؤلاء القوم تدفع المرء العادي ليدعو عليهم قائلا: دمّر الله عليهم وأبادهم، بيد أن هذه المعجزة تبلغ من الأهمية والعظمة بحيث إن الشخص العاقل الروحاني سيقول: ﴿فليمدُدْ له الرحمن مَدًّا﴾.. أي فليزدْهم الله رقيًّا وصعودًا، لأنهم كلما ازدادوا صعودًا كان في سقوطهم آية عظمى.

ثم يقول الله تعالى﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذابَ وإما الساعةَ﴾. واعلم أن قوله تعالى ﴿إما العذابَ وإما الساعةَ﴾ لا يدل على الشك والريبة في مجيء العذاب أو الساعة عليهم، بل له معنى آخر. فمن سنة الله المستمرة أنه لا يعذب شتى الشعوب والحكومات في وقت واحد ولا على منوال واحد، بل يحل عذابه أولاً على شعب، ثم بعد فترة يحل على شعب آخر، ثم بعد مدة على شعب ثالث. كما أن هناك أممًا لا يحل بهم العذاب وإنما تحل بهم الساعة. وهاتان السنتان الإلهيتان كلتاهما جاريتان معًا. فقوله تعالى لا يعني أننا لا ندري هل هم يرون العذاب أم

الساعة، بل المراد أن بعضهم يرى العذاب وبعضهم يرى الساعة. وهذا ما يحصل دائمًا. وعلى سبيل المثال كانت الحرب العالمية الأولى بمنزلة الساعة لقيصر ألمانيا ولقيصر روسيا ولملك تركيا حيث قُضي عليهم جميعًا، بينما كانت بمثابة العذاب على إنجلترا وفرنسا وبلجيكا. أما الحرب العالمية الثانية فكانت بمنزلة الساعةَ على هتلر وموسوليني حيث قُضي عليهما، ولكنها كانت عذابًا على إنجلترا وفرنسا حيث أصابهما الضعف الشديد. ولذلك يقول الله تعالى إذا جاء اليوم الذي يتحقق فيه وعدنا فيرى بعضهم العذاب وبعضهم الساعة.

واعلم أن الساعة تعنى دائمًا القيامة أو القرار النهائي. ولكنها لا يمكن أن تؤخذ هنا بمعنى القيامة لأن القيامة ليست بديلاً للعذاب، لذلك فإن الساعة تعني هنا القرار النهائي بصدد شعب لأنه يكون بديلاً للعذاب. ذلك أن القرار لا يصدر بصدد الشعوب كلها في وقت واحد، بل سيرى بعضها العذاب، بينما سيُقضى على بعضها الآخر، وهكذا سيصدر القرار النهائي في الجميع واحدًا واحدًا.

وهذا يوضح أن الله تعالى سيعامل الشعوب المسيحية بحسب سنته هذه المستمرة، فينزل على بعضهم العذاب، بينما تحل على الآخرين ساعتهم.

ثم يقول الله تعالى ﴿فسيعلمون مَن هو شر مكانًا وأضعف جندًا﴾.. أي حين ينظر هؤلاء تأييد الله ونصره للمؤمنين سيضطرون للاعتراف بأن المؤمنين كانوا مؤهلين للرقي والازدهار وإن كانوا ضعفاء، وأننا كنا مستحقين للهلاك والدمار وإن كنا أقوياء. فمثل الفريقين كمثل شجرة ونبات صغير، فالشجرة ضخمة طويلة الأغصان في الظاهر، وعمرها مئة سنة، وصارت نخرة متآكلة من داخلها، وأما النبات فصغير ناعم يخرج رأسه من النواة. فلا شك أن هذا النبات الصغير يبدو ضئيل القدر جدًّا إزاء تلك الشجرة الضخمة القوية في بادئ الرأي، ولكن كل عاقل يدرك أن هذا النبات هو الذي سينمو ويكبر ويزدهر في المستقبل، لأن أمامه عمره كله، وأما تلك الدوحة النخرة المتآكلة البالغة مئة سنة فمآلها السقوط والهلاك عاجلاً أو آجلا.

وهذا ما يبين الله تعالى هنا ويخبر أنه عند ظهور النتيجة سيقر هؤلاء القوم بأنهم كانوا مستحقين للهلاك، وأن المؤمنين هم الذين كانوا مؤهلين للترقي والازدهار، كما ينكشف عليهم أي الحزبين كان أضعف جندًا، أجند الله أم جندهم؟

في هذه الآية إشارة إلى أن هؤلاء الشعوب المسيحية سيصابون بالزهو والغرور بحضاراتهم الراقية وجنودهم الجرارة في ذلك الوقت، وأما المؤمنون فلن تكون مؤهلاتهم بادية للناس، لذا فستعيّر الشعوب المسيحية أهلَ الشرق بسبب مستوى حياتهم المتدني، ويقولون للمؤمنين نحن أكثر منكم جندًا وأشد منكم قوة. ولكن الله تعالى سينزع منهم ثرواتهم في آخر المطاف، لأنه قد قرر إنهاض المؤمنين ومحو الكافرين. فالمؤمنون سيزدادون رفعة وصعودًا، وأما الكافرون فيزدادون سقوطًا يومًا بعد يوم، حتى تقر الدنيا بأن هؤلاء ماضون قدمًا إلى الرقي والازدهار، وأما أولئك القوم فهم إلى زوال وانحطاط.

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٧﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه كلما تغيرت الظروف ازداد المؤمن إيمانًا مع إيمانه. بمعنى أن أي تغير لا يبطئ قدم المؤمن ولا ينقص من إيمانه شيئًا، بل يزيده قوة على قوته. خذوا جماعتنا مثلا، فإن كل محنة واختبار قد مرت به قد زادها تقدمًا وازدهارًا. فكم كانت شديدةً الصدمةُ التي أصيبت بها جماعتنا عند خروجنا من قاديان. ذلك لأن الأحمديين كانوا مصابين بنوع من الشرك بشأن قاديان، حيث ظنوا أنهم لن يخرجوا منها أبدًا. وعندما قُضي على شركهم هذا أصيبوا بهزة عنيفة حتى تضعضع كثير من ضعاف الإيمان منهم. فكان بعضهم يقولون بأفواههم بأن الأحمدية حق، ولكنهم كانوا مرتابين في قلوبهم، وقالوا إذا كانت الأحمدية حقًّا لما أُخرجنا من قاديان. ولكن انظر إلى الازدهار الكبير الذي حققته جماعتنا بعد الخروج من هناك. عندما كنا في قاديان كان يفد إليها من خارج الهند الواحد أو

الاثنان للتعليم خلال عدة سنين. أما بعد الهجرة منها فبدأ الكثيرون من بلاد عديدة يفدون إلى المركز على التوالي من أجل دراسة الدين، فيوجد اليوم أيضًا حوالي عشرة أو اثنا عشر طالبًا من الأجانب يتعلمون الدين هنا في المركز. كما نتلقى من حين لآخر طلبات كثيرة من الآخرين الكثيرين الذين يريدون المجيء هنا لهذا الغرض، ولكنا نضطر لرفض طلباتهم لقلة مواردنا. ثم إننا عندما كنا في قاديان كانت لنا في الخارج مراكز قليلة للدعوة والتبليغ، ولكنا قد أرسلنا الآن عديدًا من الدعاة إلى بلاد أخرى أيضًا، ويطّلع الناس على الأحمدية على نطاق أوسع. كما أن ميزانية الجماعة قد زادت الآن على ما كانت عليه في قاديان. فالرقي الذي حققناه في كل المجالات مدهش حقًّا. وهذه هي الحقيقة التي قد نبه الله تعالى إليها هنا، فهو ﷻ لا يزال يزيد المؤمنين رقيًّا ورفعة عند كل خطوة. صحيح أنهم ليسوا في مأمن من المحن والصدمات، ولكن كلما انقشعت غمامة المعارضة وانجلت المحنة، تبين أن أعداء الحق قد أصابهم الضعف والوهن، وأن المؤمنين قد ازدادوا قوة إلى قوتهم.

ثم يقول الله تعالى ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير مَردًّا﴾.. أي أن الحسنات التي تبقى هي الأفضل عند الله تعالى. بمعنى أن رأس مال المرء إنما هو أعماله التي تحظى بالقبول لدى الله تعالى؛ أو بتعبير آخر، إن الباقيات الصالحة تُدّخر في خزانة الله تعالى.

يقول المسيح عليه السلام: "لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيث يُفسد السوسُ والصدأُ، وحيث ينقُب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزًا في السماء حيث لا يُفسد سوسٌ ولا صدأٌ، وحيث لا ينقُب سارقون ولا يسرقون"(متى ٦: ١٩،٢٠).

فبما أن المسيح عليه السلام قد أوصى قومه بألا يدّخروا المال على الأرض، وإنما الحري بهم أن يدّخروه في السماء، لذا قد نبه الله تعالى المسيحيين هنا في القرآن الكريم أن كل الكفاءات والقدرات التي تتظاهرون وتتفاخرون بها إنما تتعلق بالأرض. إن مدافعكم وقنابلكم، سواء العادية منها أو النووية، وإن جنودكم وأحزابكم وتجاراتكم كلها أمور أرضية دنيوية. أما المؤمنون الذين تظنون أنهم ضعفاء لا حيلة

بهم ولا قوة، فمَصرَفهم الذي يدّخرون فيه هو في السماء. هل نسيتم قول المسيح إن ما يُكنز في السماء محفوظ، وأن ما يُكنز على الأرض هو غير محفوظ. إن باقياتهم الصالحات مدخرة في البنك السماوي الذي لا يعرف الإفلاس أبدًا، وإنها خيرٌ ثوابًا وخير مردًّا.. أي أنهم سينالون هنالك رؤوس أموالهم مع أرباحها، حيث إن لفظ ﴿ثوابًا﴾ إشارة إلى الربح، و﴿مردًّا﴾ إلى رأس المال. فالله تعالى ينبه هؤلاء الشعوب لقد أصابكم الزهو ببنوككم، وترون أنه لا بد لكم مدخرات فيها حتى تكسبوا الربا عليها أضعافًا مضاعفة، ولكن قد نسيتم أن المال الحقيقي إنما هو ما يُدّخر في البنك الإلهي، أن الربح الحقيقي إنما هو ما يعطيه الله من فضله.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٨﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٩﴾

التفسير: يقول الله تعالى هنا متسائلاً: إن هذا الذي يكفر بآياتنا زاعمًا أن ماله سيزيده ثراءً حيث يستثمره بالتجارة فيربح المزيد من المال، وأن أولاده سيتسببون في ازدهار عشيرته وقبيلته، فعنده كل الوسائل التي تزيده مالاً ونفرًا، ﴿أَطَّلَعَ الغيبَ﴾؟ ألم يُهلَك الأولون رغم كثرة أموالهم؟ ألم يدمّروا رغم كثرة أولادهم؟ ألم يكن قوم عاد قوة عظيمة؟ كانوا في يوم من الأيام يحكمون الجزيرة العربية كلها والعراق وفلسطين والشام، أما اليوم فإن علماء الآثار يبحثون عن آثارهم الباقية في بطن الأرض، وإذا وجدوا شيئًا من آثارهم يفرحون ويبتهجون وكأنهم قد قاموا بإنجاز تاريخي عظيم. ثم كم بلغ الفراعنة من المنعة والعظمة؟ كان الناس يرتجفون بسماع اسمهم، وبلغ غرورهم بعظمتهم أنه إذا خرج أحدهم إلى بلاطه وضع على وجهه النقاب ظنًّا منه أنه لو رأى أحدٌ من الرعايا وجهه لأصيب بالجذام. أما اليوم فتُستخرج جثثهم المحنطة وتوضع في المتاحف، ويقال هذه مومياء فرعون كذا وتلك مومياء فرعون ذاك. ولقد رأيت بنفسي هذه الجثث المحنطة في المتحف المصري. وتوجد بعض هذه المومياوات في فرنسا. ويسعى الأمريكان أن يأخذوا إلى بلدهم

مومياء أحد من الفراعنة. وهذا يعني أن الفراعنة أصبحوا جثثًا تتفرج عليها الناس في المتاحف كما يتفرجون على الأواني القديمة. فمتى خطر ببالهم أنه سيُفعل بجثثهم هذا في يوم من الأيام؟

فهؤلاء القوم الذين يدّعون بأنهم لن يهلكوا أبدًا لأن عندهم الأموال ولأن أولادهم مستمرون في الترقي والازدهار، يقول الله تعالى فيهم ﴿أطّلعَ الغيبَ أم اتخذَ عند الرحمن عهدًا﴾.. أي هل تيسر لهم علم الغيب بأنهم لن يهلكوا، أم أن الله الرحمن قد وعدهم بهذا؟ ذلك لأن معرفة علم الغيب أو الوعد عند الله هما الأمران اللذان يمكن أن يبنوا عليهما ادعاءهم بعدم الهلاك، أما كثرة الأموال والأولاد فلا يمكن أن ينجي أحدًا من الدمار، إذ لم تزل القوى الدنيوية العظيمة تهلك وتباد حتى اليوم.

الحق أن لأخبار الغيب مصدرين؛ أولهما المنجمون والرمالون والكهان وغيرهم الذين يتنبؤون في زعمهم بشتى الأخبار المستقبلية، والمصدر الثاني هو الله تعالى الذي يُطلِع رسلَه على أخبار الغيب؟ ولذلك ذكر الله هنا هذين المصدرين، وقال ﴿أطّلعَ الغيبَ﴾.. أي هل ما يدّعون به هو نبأ أدلى به أحد المنجمين وغيرهم، ﴿أم اتخذَ عند الرحمن عهدًا﴾.. أي أم أن نبيًّا من أنبياء الله تعالى أخبرهم بهذا؟

كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾

شرح الكلمات:

كلا: ورد في المفردات: "كلا، رَدعٌ وزجرٌ وإبطالٌ لقول القائل". فالمراد من "كلا" أن الكلام الذي مرّ من قبل غلطٌ، وإنما الصحيح ما يقال الآن.

التفسير: يعلن الله تعالى أن كل ما يقوله هؤلاء كلام فارغ غلط، إذ لم يتيسر لهم علم الغيب، كما لم يقطع الله معهم أي عهد. ﴿سنكتب ما يقول﴾.. أي لن ننسى قولهم ﴿لأُوتَيَنَّ مالاً وولدًا﴾، بل لا بد أن نأخذه في الحسبان لنحاسبهم عليه.

لن ننسى أنهم قد ادعوا بهذه الدعاوى أمام عبادنا، ومن واجبنا أن نفضحهم أمامهم أيضًا.

ثم قال الله تعالى ﴿ونَمُدّ له من العذاب مَدًّا﴾.. أي كما أننا مددنا لهم حبل المهلة طويلاً حتى أخذهم الزهو والغرور بقوتهم وشوكتهم، فعيّروا المؤمنين بضعفهم وقلة حيلتهم، فمن واجبنا كذلك أن نمد فترة عذابهم أيضًا. وكأنه تعالى يقول إن إمهالنا لهؤلاء القوم طويلاً قد عرّض عبادنا المؤمنين للخزي والهوان طويلاً، حتى بدوا أمامهم ضعفاء حقيري الشأن، كما عرّضنا بذلك الإسلام للمطاعن، فمن واجبنا الآن أن نطيل فترة عذابهم أيضًا انتقامًا للمؤمنين، لكي يطمئنوا بأن هناك من يعطف عليهم ويرعاهم.

وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

التفسير: اعلم أن قوله تعالى ﴿ونرِثه ما يقول﴾ تقديره: نرث منه ما يقول. وأما ﴿ما يقول﴾ فقد مضى شرحه من قبل في قول الله تعالى ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خيرٌ مقامًا وأحسنُ نديًّا﴾، وقول الله تعالى ﴿وقال لأُوتَيَنَّ مالاً وولدًا﴾. فالمراد من ﴿ما يقول﴾ هو زهوهم بثرائهم ومالهم وتفاخرهم بمكانتهم وأولادهم. فالله تعالى يعلن هنا أنه سيرث منهم هذه الأشياء التي يتباهون بها، أي سينـــزع منهم أموالهم وثراءهم، وعزتهم ومناصبهم وأولادهم أيضًا.

ثم يقول تعالى ﴿ويأتينا فردًا﴾.. أي أنه سيحضرنا وحيدًا منفردًا.

وكما ترى فإن الله تعالى لم يشر هنا إلى المال وإنما اكتفى بالإشارة إلى كونه وحيدًا فردًا. ذلك لأن أصحاب المرء نوعان: النوع الأول هم أولئك الذين يكونون معه بسبب القرابة كأب وأم وولد وأخ وأخت وزوجة. والنوع الثاني هم أولئك الذين يجتمعون حول المرء من أجل بعض المكاسب التي هي نتيجة حتمية للمال والعزة. وكأن هؤلاء طماعون في المال أو العزة أو الصيت في الحقيقة، وكلما رأوا عند أحد مالاً ونفوذًا صاروا من أصحابه وأصدقائه يتملقون لـــه طلبًا لبعض المنافع

والفوائد. ولكن الله تعالى يعلن هنا أنهم حين يأتوننا يأتي كل واحد منهم كفرد واحد، ولن يرافقه عندها أي من أصحابه.

لقد بين الله تعالى من قبل أنه سينـــزع منهم أموالهم وأولادهم، أما الآن فيضيف ويقول ﴿ويأتينا فردًا﴾.. أي لأننا سننـــزع منهم أولادهم فيصبح كل واحد منهم وحيدًا فردًا؛ كما أننا سننـــزع منهم أموالهم أيضًا فينفضّ مِن حولهم أصحابهم الآخرون الذين اجتمعوا حولهم طمعًا في مالهم وكانوا يتملقون لهم كل حين. فكأن قوله تعالى ﴿ويأتينا فردًا﴾ جاء تأكيدًا لحرمانهم من المال والأولاد كليهما. حيث جاء لفظ ﴿فردًا﴾ نفيًا للأولاد والخدم والأصحاب، أما الذين يجتمعون حولهم طمعًا في المنافع والمكاسب فجاء نفيهم في نفي المال تلقائيًا، لأن هؤلاء إنما يتخلون عن المرء حين لا يكون عنده مال ولا نفوذ. خذوا كفار مكة مثلاً، كم كان الرؤساء الكافرون يتباهون بأولادهم، ولكن الله تعالى نـــزع منهم أولادهم وجمعهم على قدمي محمد رسول الله ﷺ، جاعلاً أولئك الرؤساء الكافرين أذلاء صاغرين.

لما خرج النبي ﷺ لغزوة بني المصطلَق تشاجر بعض الأنصار والمهاجرين على بئر ماء وقت الشرب، وطال الشجار واحتد حتى شهر القوم سيوفهم وكادوا يقتتلون. فاغتنم عبد الله بن أبيّ بن سلول – رأس المنافقين – الفرصة فتقدم وقال للأنصار، إنما هي أخطاؤكم التي رأيتم بسببها هذا اليوم التعيس. فكنت أنصحكم دائمًا أن لا تخصوا المهاجرين بهذه الحفاوة والكرم وإلا ستندمون على ذلك في يوم من الأيام، ولكنكم لم ترضوا بقولي. والحمد لله أنكم قد تنبهتم لخطأكم الآن قبل فوات الأوان، فلا يهمنّكم شأنهم. دعوني أرجع إلى المدينة، فسترون أنه ﴿لَيُخرِجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾(المنافقون: ٩). وسترون أن هذه الفتنة لن تطلّ برأسها بعد ذلك أبدًا. وكان هذا الشقي يقصد بـــ ﴿الأعزّ﴾ نفسه، وبـــ ﴿الأذل﴾– والعياذ بالله – رسولَنا الكريم ﷺ. فلما سمع الفريقان قوله فطنوا على الفور أن الرجل يريد الفتنة مستغلا شجارهم وحماسهم. فرجعوا إلى صوابهم وتصالحوا. ولكن أحد الصحابة جرى إلى رسول الله ﷺ وأبلَغه الخبر. فدعا النبي ﷺ عبدَ الله بن أبيّ بن سلول

وأصدقاءه وسألهم عن الأمر. فأنكروا ما قالوا تمامًا. ولكن الحدث كان أمرًا واقعًا، فأخذ خبره ينتشر بين القوم حتى وصل إلى ابن رأس المنافقين هذا، حيث قيل لـــه إن أباك قد قال عند هذا الشجار مهددًا: إن أعز شخص في المدينة، أي أباك، لا بد أن يطرد أذل شخص فيها، أي – والعياذ بالله – رسول الله ﷺ. وكان ابنه فتى مؤمنًا مخلصًا، فلم يتمالك نفسه وذهب إلى النبي ﷺ من فوره، وقال: يا رسول الله، لقد سمعت أن أبي قد تكلم بمثل هذا الكلام؟ قال النبي ﷺ: نعم، لقد بلغني ذلك أيضًا. قال: يا رسول الله، هل عقوبة هذه الجريمة إلا القتل؟ فأرجوك، يا رسول الله، أنك إذا أردتَ قتل أبي فلا تأمر غيري بقتله؛ لأنك لو أمرت غيري بقتله فأخاف أن يغويني الشيطان ويحرضني على قاتل أبي، فأقتله من فورة الغضب والانتقام. فاسمح لي أنا بقتل أبي بيدي. فقال رسول الله ﷺ، أنا لا أرغب في قتله أبدًا، بل إني لا أريد عقابه أصلا. قال: يا رسول الله، حسنًا، إذا كنت لا تريد أن تعاقب أبي الآن، فالرجاء أنك إذا أردت قتله في وقت لاحق فمُرْني أنا ولسوف أقتله بيدي. فأعاد النبي ﷺ كلامه وقال إنا لا نريد أن نعاقبه أصلاً، وإنما نريد أن نعامله بلطف ولين. فخرج الفتى من عند رسول الله ﷺ صامتًا، ولكنه كان يحترق كمدًا بسبب الكلمة التي تفوه بها أبوه، فكان لا يرتاح له بال ولم يقر لـــه قرار. فلما قفل جيش المسلمين، وأراد أبوه أن يدخل المدينة قفز الفتى من على راحلته وصدّ طريق أبيه شاهرًا سيفه وقال لـــه: هل تتذكر ما قلت هنالك؟ ألم تقل ﴿لَيُخرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾؟ فادّعيتَ أنك أعزّ شخص في المدينة وأن محمدًا رسولَ الله ﷺ هو – معاذ الله – أذلّ الناس فيها. فأُقسم بالله العظيم أنني لن أسمح لك بالدخول ما لم تعترف بأنك أنت أذل شخص في المدينة، وأن محمدًا رسول الله ﷺ هو أعز إنسان فيها، وإلا ضربتُ عنقك. فلما رأى هذا المنافق أن ابنه هو الذي يهدده بالقتل وقد استل السيف، ارتجف خوفًا وذعرًا، وعلم أنه لا مهرب لـــه اليوم من ترديد هذه الكلمات وإلا لقُتل بسيف ابنه. فاعترف أمام جميع زملائه وأصدقائه الذين كان يتفاخر أمامهم بعزته وشرفه بأنه أذل شخص في المدينة وأن محمدًا رسول الله ﷺ أعز إنسان فيها. وعندها سمح لـــه ابنه بدخول المدينة.

فما أدلَّ ذلك على صدق قول الله تعالى ﴿ويأتينا فردًا﴾! حيث نـــزع من الكفار أبناءهم، فصاروا أبناء لمحمد رسول الله ﷺ. وبالمثل فقد صار ابن أبي جهل من أبناء رسول الله ﷺ. كما صار ابن العاص (عمرو) من أبنائه ﷺ. وصار ابن الوليد (خالد) من أبنائه ﷺ. وصار ابن أبي سفيان (معاوية) من أبنائه ﷺ. كان هؤلاء القوم من الذين يتفاخرون بأولادهم، ويتباهون بأموالهم، ولكن الله تعالى نـــزع منهم أموالهم وأولادهم أيضًا. ويقول الله تعالى إن هذا هو ما سيحصل في المستقبل أيضًا ﴿ونرثه ما يقول ويأتينا فردًا﴾. فلن تبقى عندهم أموالهم ولا أولادهم ولا أتباعهم المتملقون لهم، بل سننـــزع منهم هذه الأشياء كلها ونضعها في يد عبادنا المؤمنين، ليعود هؤلاء الكفار صفر الأيدي.

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ﴿٨١﴾

شرح الكلمات:

عزًّا: العِزُّ خلافُ الذلّ (الأقرب).

التفسير: يتضح من دراسة تاريخ عَبَدة الأصنام أن من أكبر أسباب اتخاذ الأصنام هو الرغبة في العزة والشهرة بين الناس. فكانوا يصنعون الأصنام كبيرة ضخمة مثلما صنع المصريون "أبا الهول"، حيث يبلغ طوله مئات الأقدام، وقد اشتهر في العالم كله، ويزوره السياح من أقطار نائية، ويصابون بالدهشة برؤيته. وهذا يعني أنهم لم يكونوا يصنعون الصنم فقط، بل كانوا يصنعونه ضخمًا هائل الحجم حتى تنجذب إليه الأنظار تلقائيًّا، ويقول الناس إنه صنم عظيم. أو كانوا يبنون لها معابد ضخمة تصيب الناس بالهول والحيرة. ثم إنهم كانوا يقيمون لهذه الأصنام حفلات وأعراسًا وينفقون عليها الآلاف من المال، تفاخرًا أمام الأمم المجاورة. فمثلاً قد صنعوا بالهند صنم "سومنات" بإنفاق الملايين. وعندما يرى الرائي عيونه المصنوعة من الماس، ويرى على رأسه تاجًا، وفي يده مقامع ذهبية، وأنه طويل القامة حتى يصل إلى السقف، يقول في نفسه إن ما عند هذا الصنم من

ذهب وفضة وألماس وغيرها من الثروة والمجوهرات لا يمكن أن يكون بحوزة أجيال وأجيال من أولادي، فيمتلئ قلبه رعبًا وهيبة، ولا يملك إلا أن يقر بعظمة القوم الذين اتخذوا هذا الصنم الهائل. فبما أن هؤلاء يصنعون الأصنام هائلة ضخمة، ثم يتفاخرون على جيرانهم بما أنفقوا عليها من أموال طائلة، فإنهم يزدادون عزًّا وعظمة بين الناس، ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿واتخذوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عزًّا﴾ لينبه إلى أنهم ليسوا بحاجة إلى أن ينفقوا شيئًا على الله تعالى لأنه موجود منذ الأزل، وإنما يصنع هؤلاء الأصنام الفخمة، وينفقون عليها الذهب والفضة والأحجار الثمينة ويبنون لها المعابد الكبيرة المزخرفة طمعًا في العزة والشهرة وتفاخرًا بين الناس. وعلى النقيض انظروا إلى المساجد في الإسلام كم هي بسيطة! فلكم تتميز الكعبة المشرفة بطابع البساطة! وكم هي بسيطة روضة رسول الله ﷺ! وليس صعبًا على المرء أن يدرك أن كل من يدخل المسجد الحرام إنما يدخله من أجل العبادة خالصة، وليس لأي شيء آخر إذ لا توجد فيها أي أحجار كريمة ولا مجوهرات ولا ذهب ولا فضة. كذلك من يذهب لزيارة قبر الرسول ﷺ للدعاء إنما يزوره بمشاعر الحب والاحترام فحسب، وليس لأن يرى هناك مبنى عاليًا رائعًا. من المؤسف أن المسلمين قد جعلوا المساجد الآن مدعاة للفخر والمباهاة. فيبنون المساجد الفخمة رياءً وتفاخرًا، وينفقون على زخرفتها الملايين، بغض النظر عما إذا كان هناك بالفعل حاجة إلى المسجد أم لا، وهل يصلي فيه أحد أم لا. لقد ذهبت لزيارة مسجد جامع بمصر، فوجدت لفيفًا من الناس لا يتجاوز عددهم الأربعة أو الخمسة يصلون جماعة في زاوية منه بعيدًا عن المحراب. ولما فرغوا من الصلاة سألتهم هل تأخرتم عن الصلاة بالجماعة حيث تصلون الآن؟ قالوا كلا، بل هذا هو إمام هذا الجامع وهؤلاء هم المأمومون. قلت: فلم تركتم المحراب، وصليتم بعيدًا عنه في زاوية منه. قالوا هذا هو عدد المصلين هنا، فنخجل أن نصلي نحن الأربعة فقط وراء الإمام في محراب هذا الجامع الكبير، فنؤدي الصلاة في زاوية منه، حتى إذا رآنا أحد ظن أن هؤلاء قد تخلفوا عن الصلاة بالجماعة!

إذًا فإن المسلمين أيضًا قد أصيبوا بهذا المرض في هذا العصر، حيث لا يلتزمون بأداء الصلوات، ولكنهم يبنون مساجد فخمة؛ مع أن جمال المسجد إنما هو في بساطته، وقد جعله الله تعالى سببًا للزينة الروحانية، وليس أن نتخذه سببًا للتعالي والتفاخر. بيد أنه لا بد من الأخذ في الحسبان سعة المكان للمصلين والنظافة والصحة، فهذا ليس زخرفة، بل ضرورة.

فقول الله تعالى ﴿واتخَذوا مِن دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا﴾.. يعني أولاً أن هؤلاء يصنعون أصنامًا كبيرة ويبنون لها معابد ضخمة، ويقيمون عليها أعراسًا وحفلات، طمعًا في العزة والشهرة والمدح والثناء فحسب.

كما أن قوله تعالى ﴿ليكونوا لهم عزًّا﴾.. ينطوي على إشارة أخرى أيضًا وهي أن الذي يعبد الصنم يعدّه سببًا للشفاعة، ومدعاةً للتقرب إلى الله تعالى. إنه يظن أنه لا يصلح بنفسه للدخول إلى بلاط الله تعالى، فينضم إلى حاشية من هو من رجال البلاط الرباني، حتى يدخل معه في بلاط الله تعالى. إنه يظن أنه آثم جدًّا وأنى لـــه الوصول إلى بلاط الله تعالى بنفسه، ولكن هذه الأصنام لها درجة وزلفى عند الله تعالى، ولو أني عبدتها لدخلت في خَدَمِها، ووصلت معها إلى بلاط الله تعالى. شأنه شأن شخص يعمل خادمًا لحاكم المحافظة مثلا، فيدخل معه على المسؤولين الكبار. فالمشرك يظن أنه يتمكن من الجلوس في البلاط الإلهي من خلال عبادة الأصنام. ولكن الله تعالى في كل مكان، وأبوابه مفتوحة لكل سائل وفي كل حين وآن. وقد نبه الله تعالى إلى ذلك في القرآن الكريم بقوله ﴿ألا لله الدينُ الخالصُ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبُدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى إن الله يحكُم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي مَن هو كاذب كَفّار﴾(الزمر: ٤).. أي ما كان الله ليقبَل من الناس عبادة يشترك فيها غيره. إن الذين يعبدون من دونه أشياء أخرى يحسبون أنهم إنما يعبدونها لتقربهم إلى الله تعالى، ظانين أنها من المقربين لدى الله تعالى، وإذا كانوا على صلة معها دخلوا معها في بلاط الله تعالى؛ ولكن الغريب أن طالبي البلاط الإلهي هؤلاء لا يزالون في خصام دائم فيما بينهم، ويشن بعضهم الغارات باسم صنمهم على عبدة الصنم الآخر. فلا شك أنهم سيحضرون في بلاط الله تعالى

ولكن ليس كرجال البلاط، بل كمجرمين، وسوف يحكم الله بينهم ويكشف عليهم زيف دعاواهم. لقد ارتكب هؤلاء جريمتين: أولاهما الكذب حيث عزوا إلى الأصنام أو الآلهة الباطلة التي اتخذوها من دون الله تعالى صفات لا توجد فيها؛ وثانيتهما أنهم قاموا بنكران شديد لنعم الله تعالى، فإنه تعالى، رغم عظمته وجبروته، يتفضل عليهم وينعم عليهم، ومع ذلك يلجأ هؤلاء إلى الآلهة الباطلة. فقال تعالى ﴿إن الله لا يهدي مَن هو كاذبٌ كَفّارٌ﴾.. فبكلمة ﴿كاذب﴾ نبه إلى كونهم كاذبين إذ يدركون أن هذه الأصنام لا تقدر على شيء ومع ذلك ينسبون إليها قدرات إلهية؛ أما كلمة ﴿كَفّار﴾ فبين الله تعالى بها أنهم جد ناكرين لمعروفنا حيث يرون نعمنا المتوالية ومع ذلك يعوذون بأصنامهم الباطلة بدلاً من أن يدخلوا في حمانا.

كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

ضدًّا: الضدُّ هو المخالف وأيضًا المعاون. وكلا المعنيين ينطبق هنا بمعنى أنهم سيقفون في وجوههم أعداءً لهم، أو سيقفون في وجوههم مؤيدين للحق.

التفسير: المراد من كلمة ﴿كلا﴾ أن أكبر ما يصبو إليه عبدة الأصنام هو أن ينالوا عزًّا، ولكن هذه الأصنام لن تتسبب في عزهم أبدًا.

أما قوله تعالى ﴿سيكفُرون بعبادتهم﴾.. فضمير الغائب في ﴿سيكفُرون﴾ يمكن أن يعود إلى العابدين وأيضًا إلى المعبودين، والتقدير: سيكفر العابدون بعبادة المعبودين، أو سيكفر المعبودون بعبادة العابدين.. بمعنى أن عابدي الأصنام أنفسهم سينكرون عبادتها، ويقولون إننا لم نعبدها قط، أو أن هذه الأصنام أو المعبودين باطلاً سيكفرون بعبادة من عبدوها ويقولون إن هؤلاء كاذبون إذ لم يعبدونا قط، بل كانوا يحققون بذلك مآربهم الأخرى من العز والشهرة.

وقد ذكر القرآن الكريم في موضع آخر هذين المعنيين كليهما حيث قال الله تعالى ﴿إذ تبرَّأَ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورَأَوُا العذابَ وتقطَّعتْ بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كَرّةً فنتبرَّأَ منهم كما تبرءوا منّا﴾(البقرة: ١٦٧-١٦٨).

بينما ورد في مكان آخر من القرآن الكريم أن الآلهة الباطلة ستقول لله تعالى ﴿تبرّأْنا إليك ما كانوا إيانا يعبُدون﴾(القصص: ٦٤).. أي يا رب نتبرأ من هؤلاء أمامك، فإنهم ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواء أنفسهم.

كذلك جاء في مكان آخر من القرآن الكريم أن الملائكة تقول للمشركين وهي تقبض أرواحهم ﴿أين ما كنتم تَدْعون مِن دون الله﴾ من الآلهة الباطلة، فيقولون ﴿ضلُّوا عنا﴾(الأعراف: ٣٨).. أي قد فرّوا من عندنا ولا نراهم اليوم.

ويقول القرآن الكريم أيضًا ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءَهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوْا مِن دونك فألقَوا إليهم القولَ إنكم لكاذبون﴾(النحل: ٨٧).. أي أن المشركين حين يرون آلهتهم الباطلة يقولون لله تعالى ربنا هؤلاء هم الذين كنا نعبدهم من دونك، وهؤلاء هم الذين قاموا بإغوائنا. فترد عليهم آلهتهم لِمَ تفترون علينا أيها المفسدون؟ فنحن لم نغوِكم، بل كنتم تشركون بالله تعالى طمعًا في مآربكم ومكاسبكم. وهذا يعني أن أولئك الآلهة التي يعتبرونها مدعاة عز لهم هي التي ستجلب عليهم الخزي والهوان في ذلك اليوم.

كما يخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ويومَ نحشُرهم جميعًا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤُكم الذين كنتم تزعُمون * ثم لم تكُنْ فتنتُهم إلا أن قالوا واللهِ ربِّنا ما كنا مشركين﴾(الأنعام: ٢٣-٢٤). والمراد من قوله تعالى ﴿ثم لم تكن فتنتُهم ...﴾ أنه لن يكون جوابهم إلا أنهم يحلفون بالله ويقولون ربنا إننا لا نعرف هؤلاء الفاسدين، إذ لم نشركهم في عبادتك قط.

ويخبرنا الله تعالى في مكان آخر في القرآن الكريم ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾(يونس: ٢٩).. أي أن الآلهة الباطلة نفسها ستقول في وجه المشركين ما كنتم إيانا تعبدون.

ويقول الله أيضًا عن المشركين ﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾(الروم: ١٤).. أي أن المشركين سيكفرون بآلهتهم الباطلة ويقولون إننا لم نتخذها قط آلهة من دون الله تعالى.

وكما بيّنتُ من قبل أن من معاني الضد المعاون أيضًا، وعليه فيكون المراد من قوله تعالى ﴿ويكونون عليهم ضِدًّا﴾ أن هؤلاء المعبودين من دون الله تعالى باطلاً سيتعاونون مع الله تعالى في ذلك اليوم ضد عابديهم المشركين، أو أن المشركين سيصبحون متعاونين مع الله تعالى ضد آلهتهم الباطلة. وهذا يعني أن كلا الفريقين سيكون عندئذ معارضًا للآخر، ومتعاونًا مع الحق والصدق أيضًا. سيقول المشركون لم نعبد هؤلاء الآلهة، ويقول المعبودون ما كان هؤلاء إيانا يعبدون.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الله تعالى يقول هنا ﴿ويكونون عليهم ضدًّا﴾، ولفظ ﴿ضدًّا﴾ واحد ولكنه يعني الجمع (إملاء ما منّ به الرحمن). والحكمة في هذا الاستعمال الرباني هي الإشارة إلى كمال الاتحاد والإجماع، حيث بيّن الله تعالى أن المشركين، رغم كثرة عددهم ورغم انتمائهم إلى شتى الطوائف والأحزاب، سيتحدون في ذلك اليوم ضد آلهتهم، فيقولون بلسان رجل واحد: لا علاقة لنا بهذه الآلهة الزائفة الباطلة، ونحن بريئون منهم كل البراءة. وأما الآلهة الباطلة فهي الأخرى ستعلن بالإجماع أن لا صلة لنا بهؤلاء المشركين، وها نحن نعلن براءتنا منهم. وذلك لشدة هول ذلك اليوم المخيف الشديد الذي يستولي فيه اليأس على الجميع، فيفرّ المشركون بأنفسهم من آلهتهم الباطلة، وستسعى آلهتهم الباطلة أيضًا للتخلص منهم إنقاذًا لنفسها.

فما أدل هذا الاستعمال على محاسن اللغة العربية، حيث أشار الله تعالى إلى موضوع واسع بتغيير الأسلوب قليلاً حيث استعمل المفرد مكان الجمع. فدل بذلك على أن هذه الآلهة التي يحسبها المشركون مدعاة عز لهم هي نفسها ستجلب عليهم الخزي والعار، وليس ذلك فحسب، بل أشار أيضًا إلى ضعفهم وعجزهم، وهول الموقف، واقتراب الخطر منهم بحيث لن يحتاجوا إلى تفكير طويل، بل إن الجميع، المشركين وآلهتهم الباطلة كلهم، سيتوصلون إلى نتيجة واحدة. سينكر المشركون

عبادة آلهتهم الباطلة بلسان رجل واحد، دونما تدبر وتشاور، مدركين أن هذا هو السبيل الوحيد لنجاتهم. سيبلُغون الملايين عددًا، ولكن سيصبحون فردًا واحدًا فيما يتعلق بالنتيجة.

وهنا يطرح سؤال نفسه وهو أن معظم الآلهة الباطلة جماد فكيف تتكلم إذًا؟

وهناك ثلاثة أجوبة عن ذلك وهي:

أولاً: أن الآلهة الباطلة التي هي من ذوي الأرواح مثل المسيح والملائكة وغيرهما فإنها ستتكلم، وسيكون جوابها بمنـــزلة الجواب عن الآلهة الأخرى أيضًا.

وثانيًا: يحدث أحيانًا في العالم الروحاني أن الجماد أيضًا تتمثل في صورة ما وتتكلم. ويحصل هذا في المنام والكشوف كثيرًا حيث تتكلم الأشجار والجدار والديار، ويتأثر الرائي من كلامها كما يتأثر من كلام الأحياء. لقد قال سيدنا المسيح الموعود عليه السلام مرة مشيرًا إلى حادث سقوط بيت: إن هذا البيت كان يقول لي اخرُجْ من هنا بسرعة فإني على وشك السقوط. إذًا فلا غرابة في كلام الأصنام. صحيح أنها جماد، ولكنها ستتمثل وترد على المشركين بهذا الكلام لتجعلهم مهانين صاغرين، وبما أن القوة الروحانية ستكون عندها أكثر جلاء، فسيعلمون أن هذا هو الحق.

ثالثًا: إنما الأصنام تماثيل لعباد الله الصالحين الذين خلوا من قبل أو للملائكة. فقد قال الرسول ﷺ إن الأصنام ليست أحجارًا فقط، وإنما هي تماثيل صلحاء القوم في القديم (البخاري: كتاب التفسير، سورة نوح). فمثلاً كانوا يحبّون إسماعيل عليه السلام ويحترمونه فنحتوا صنمًا باسمه. أو كانوا يحترمون الملائكة فنحتوا تماثيلها أيضًا. فبما أن الأصنام تماثيل لبعض الصالحين فإنما المجيب الحقيقي هم هؤلاء الصالحون، فسيُعَدّ كلامهم جوابًا من قبل هذه الأصنام أيضًا. وبما أن هؤلاء الصالحين هم الذين كان يعبدهم هؤلاء في الواقع لذا فسيُعدّ جوابهم هو الجواب الحقيقي. فمثلا يقف عندها الملاك الذي صنعوا تمثاله وعبدوه، وسيهينهم أمام الجميع. أو سيهبّ إسماعيل عليه السلام الذي صنعوا تمثاله وعبدوه ويعلن إن هؤلاء كاذبون. إنما كنت أؤمن بالله تعالى وأعبده وحده.

إذًا فبالرغم أن معظم الأصنام والأوثان جماد من حجر وشجر ونهر وغيرها إلا أن المشركين يعتبرون هذه الأصنام نائبين للصالحين الذين خلوا من قبل أو للملائكة وغيرها، زاعمين أن هذا صنمُ فلان من الآلهة، وأن ذاك تمثال فلان من الملائكة، وأن ذلك وثنُ فلان من الصالحين، لذا فإن الملاك أو الرجل الصالح الذي يذكرون اسمه هو نفسه يتقدم ويعلن إنما كنت أعبد الله وحده، ولكنكم عبدتموني. وها أنا أعلن أني من عملكم من القالين، ولا أراكم تستحقون أي عطف وشفقة. فبما أن هؤلاء الصلحاء أو الملائكة هم الآلهة الباطلة في الحقيقة فيُعتبر جوابهم جوابًا عن الأصنام كلها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾

شرح الكلمات:

أَزًّا: الأَزُّ هو غليان القِدْر في الأصل، ثم استُعمل بمعنى الإغراء (الأقرب). والأزُّ أقوى من الهزّ (المفردات تحت أزّ).

أرسلنا: أرسله يعني بعَثه. ويعني أيضًا أطلقه وخلّاه. يقال أرسلتُ البعيرَ: خلّيتُ سبيله (انظُر الأقرب والقرطبي).

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن عملنا الأساسي هو حماية عبادنا من الشياطين، كما قال الله تعالى لإبليس في مكان آخر من القرآن الكريم ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾(الحجر: ٤٣)، ولكنا ننـــزع حمايتنا عن هذا النوع من الكفار، ونتركهم وشأنهم، ونخلي سبيل الشياطين ليهاجموهم كما شاءوا، فلا نريد أن نتدخل في شؤونهم أبدًا.

وقوله تعالى ﴿إنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾ لا يعني أنه تعالى يبعث الشياطين للهجوم عليهم، أو يرسلهم بنفسه وراء هؤلاء؛ بل المراد أنه تعالى يقيّد الشياطين في الأصفاد عادةً، أو يتصدى لهم إذا هجموا على عباده، ويحميهم منهم، ولكن هؤلاء الكفار هم من النوع الذي إذا هاجمهم الشيطان فإنه تعالى لا يدفعه

عنهم، بل يخلي سبيله، ليفعل بهم ما شاء، لوجود نوع من الأنس والتجانس بين الفريقين حيث يحنّ الواحد إلى الآخر ويتلهف إليه شوقًا.

وكأن الله تعالى يبين هنا أنه يصفّد الشياطين في أول الأمر، أو إذا أرادوا الهجوم على عباده تصدى لهم دفاعًا عنهم، ولكنه يأتي فيما بعد حين يتخلى عنهم ويتركهم والشياطين. ذلك لأنه يتولد بين الشيطان وهؤلاء العباد نوع من التوافق والتجانس والتوادّ حتى يحن الواحد منهما شوقًا لاحتضان الآخر؛ فلا يريد الله بعد ذلك أن يتدخل في شؤونهم.

أما قوله تعالى ﴿تَؤُزُّهم أَزًّا﴾ فله ثلاثة مفاهيم:

الأول: أن الشياطين تحرّضهم على المعاصي. ذلك لأن الشيطان إنما يغري الإنسان بما هو يتفق مع طبيعته، والبديهي أن الشيطان يحب الإثم والعصيان. فمثلا لو قيل إن المعلم يحث الطلاب حثًّا لفهم السامع أنه يحرضهم على المذاكرة وطلب العلم. أو إذا قلنا مثلاً إن قائد فريق الكركيت يؤزّ اللاعبين أزًّا لكان المعنى أنه يحرضهم على إجادة هذه اللعبة وإتقانها. ولما كان عمل الشيطان الحث على الشر فكان معنى قوله تعالى ﴿تؤزّهم أزًّا﴾ أن الشياطين تغري هؤلاء بالمعاصي والآثام.

والثاني: أن الشياطين لا تزال تحرّضهم على المعاصي حتى يسقطوا في جهنم في آخر المطاف.

والثالث: أن الشياطين تحرضهم على التصدي للمسلمين والهجوم عليهم. ذلك لأن الشيطان إنما سيحرّضهم ضد عدوه، والبديهي أن عدوه الحقيقي هو المسلمون والإسلام؛ ولكن ليس بوسعه أن يهاجمهم مباشرة، لذا فهو يحرض أصحابه بأن هُبُّوا واحملوا على المسلمين.

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾

التفسير: أي ما دام الأمر كما بيّنا، وما دامت هذه هي مشيئتنا، فلا حاجة بكم أيها المؤمنون أن تخططوا لعقابهم، وتتخذوا شتى التدابير لمحاربتهم. إنما تعليمنا لكم

هو ﴿فلا تعجَلْ عليهم﴾.. أي لا تتسرعوا في شأنهم فيما يخص نواياكم أو خططكم وتدابيركم أو هجومكم أو دعاءكم عليهم. ذلك لأن الله تعالى لم يحدد هنا أمرًا معينًّا ينهانا عنه، فلذا يمكن أن يراد هنا كل شيء يُستخدم ضد العدو من نية أو خطة أو تدبير هجومي أو مشاعر غيظ وألم أو دعاء.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا نُهينا هنا عن الاستعجال ضد العدو؟

والجواب أن الآية السابقة أخبرتنا أن الله تعالى نفسه قد خلّى سبيل الشياطين لتحريض هؤلاء الأعداء. كان الله تعالى قادرًا على أن يحمي العباد من هجمات الشياطين، ويفشل هجومهم، لأن من سنته ﷻ أن الشيطان إذا صال على عبده تصدى لـــه دفاعًا عنه من صولته، ولكنه تعالى ما دام قد أمسك عن التدخل بين هؤلاء القوم والشياطين فلا بد أن يكون وراء ذلك حكمة إلهية. فلا يليق بالمؤمن القيام بما يتعارض مع الحكمة الإلهية، فيهبّ لمحاربة الذين قد أراد الله تعالى بمشيئته وحكمته أن يمدّ لـــهم حبل المهلة مدًّا.

غير أن هذا لا يعني أن يمتنع المؤمنون من اتخاذ مواقف سلمية أخرى ضد معارضي الإسلام، ولا يحملوا أي مشاعر غيرة ضد أعداء الحق، ولا يتخذوا تدابير مشروعة لإفشال مكائد المتآمرين على الإسلام. وإنما ينهانا الله تعالى عن الرد على ما سبق بيانه في الآية الماضية.

لقد بين الله تعالى بقوله ﴿ألم تَرَ﴾ أن الظروف واضحة جلية لكم، ولو تدبرتم لأدركتم أن كل هذا إنما يتم وفق مشيئة إلهية خاصة.

علمنا من ذلك أنه إذا كان هناك أمر لا نعرف على وجه اليقين ما هي الخطة الإلهية بشأنه، أو إذا كان ثمة حدث يندرج تحت النواميس الطبيعية العامة، فيجوز لنا عندها الدفاع عن أنفسنا ضد هجوم العدو، ويحق لنا أن نتخذ ضده التدابير بحسب القانون. ولكن إذا رأينا جليًّا أن الله تعالى يعمل الآن بحسب مشيئته الخاصة خلافًا لسنته العامة فليس لنا إلا العمل بما أوصانا الله به في قوله تعالى ﴿فلا تعجَلْ عليهم﴾. فعندها يحرم على المؤمن حتى الدعاء على العدو أيضًا، واللجوء إلى أي تدبير. إنما يؤمر عندئذ أن يتحمل العدوان بصبر وثبات فحسب.

الحق أن المؤمنين يصابون بالقلق حين يتجاوز العدو الحدود في شره وعدوانه، فيُعرِبون عن غيرهم تارة، ويقولون للنبي أو لخليفته أن يدعو على العدو بالهلاك، ويصدرون فتاوى الجهاد تارة أخرى. في حين أن الله تعالى يكون قد خطط لهلاك الأعداء خطة أخرى، فيأمر المؤمنين بعدم الاستعجال، لأن كل شيء سيتم في موعده، وسيحل عليهم العقاب من عنده حتمًا.

ثم يقول الله تعالى ﴿إنما نَعُدُّ لهم عَدًّا﴾.. أي أنكم تنامون غافلين عن عدوكم، ولكنا مستاءون منه لدرجة أننا نعد ساعات هلاكه عدًّا. وما دمنا نتربص به لكي نكسر عنقه، فلم تستعجلون خاصة وأنكم لا تقدرون على مقاومته.

انظر كيف أعطى الله تعالى هنا تعليمًا واضحًا وهامًّا بصدد الجهاد، وكيف تدعم هذه الآية تلك النظرية الرائعة التي قدمها مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية سيدنا المسيح الموعود عليه السلام بصدد الجهاد في هذا العصر. فقد بين الله تعالى في هذه الآية أنه سيأتي على المسلمين زمان يقول فيه فئة منهم أن لا سبيل لرقي الإسلام الآن إلا بالجهاد ضد هؤلاء الكفار وببذل الجهود لمحوهم بحد السيف. ولكن هؤلاء سيكونون على الخطأ، فإنما الطريق السليم والصحيح أن لا يتعجل المسلمون في مقاومة الأعداء، بل يتحملوا أذاهم بصبر وجلد، ولا يتخذوا إلا تدابير روحانية أي نشر الدعوة والدعاء وما إلى ذلك. وهذا بالضبط ما دعا إليه سيدنا المسيح الموعود عليه السلام الذي بعثه الله تعالى لإصلاح العالم، فأعلن للمسلمين في بيت شعر له بالأردية ما تعريبه:

كل من يخرج للحرب بعد سماع هذا الأمر سيلقى على أيدي الكافرين هزيمة نكراء. (ضميمة تحفة غولروية ص ٧٨)

لقد أوضح حضرته عليه السلام للمسلمين أنهم ما داموا لا يملكون أي قوة فكيف يكون الجهاد بالسيف فرضًا عليهم. عندما يحين وقت الجهاد بالقوة سيمكّن الله المسلمين من مقاومة العدو كيفما شاء.

فالمسيح الموعود عليه السلام قد عارض فكرة الجهاد السائدة بين المسلمين في هذا العصر، وهذه هي الحقيقة التي بيّنها الله تعالى في قوله ﴿فلا تعجَلْ عليهم﴾.

الحق أن رقي المسيحيين وازدهارهم الذي تتحدث عنه هذه السورة إنما كان مقدرًا لهم في المستقبل، بل قد أكد القرآن الكريم والحديث الشريف أنه مقدر لهم في الزمن الأخير بالتحديد. فثبت بذلك أن قوله تعالى ﴿فلا تعجَلْ عليهم﴾ ليس موجهًا إلى رسول الله ﷺ في الحقيقة، وإنما إلى المسلمين في الزمن الأخير، حيث أخبر الله تعالى أنه سيأتي عليهم زمان يتمنون فيه حرب المسيحيين برؤية رقيهم وازدهارهم. وبالفعل إنه لمن الغريب المدهش أن المسلمين ظلوا غافلين عن المسيحيين في الزمن الذي كانوا فيه قادرين على حربهم وكان المسيحيون بمثابة صيد في قبضتهم، ولكن حين ازدهر المسيحيون في العالم فكر المسلمون في جهادهم، مع أن المشيئة الإلهية كانت تقتضي منهم عندئذ العمل بقوله تعالى ﴿إنما نَعُدُّ لهم عَدًّا﴾، فكان الحريّ بهم أن يستغفروا الله تعالى على ما تقدم منهم من تقصير وغفلة، ويدعوه ﷻ دعاء مجملاً بأن يحميهم من فتنة المسيحيين في المستقبل، ويبدؤوا ضدهم الجهاد بالقرآن الكريم كفارةً عن غفلتهم السالفة، لكي يتم القضاء على القوة المسيحية ببركة القرآن الكريم. ولكن المسلمين نادوا بالجهاد بالسيف في غير أوانه، فأتاحوا بذلك للمسيحيين الفرصة للدعاية الزائفة ضد الإسلام، وكانت النتيجة أن آلاف المسلمين سقطوا ضحية لدعايتهم وارتدوا وتنصروا. إنا لله وإنا إليه راجعون. وكان سيدنا المسيح الموعود عليه السلام هو الوحيد الذي نبه المسلمين إلى خطئهم هذا، ولكنه تعرض بسببه لفتاوى التكفير حيث قيل إن هذا الشخص عدو للإسلام ولرقيه (مجلة "إشاعة السنة النبوية" مجلد ١٣ عدد ٤ إلى ١٢ عام ١٨٩٠ ص ٥-١٤٨). والحق أن الطريق الوحيد لرقي الإسلام في ذلك الوقت إنما هو نشر تعليم الإسلام الصحيح، لكي يفتحوا به قلوب فئة من المسيحيين، ويزيلوا سوء الفهم من قلوب فئة أخرى منهم. ولكن المؤسف أن المسلمين قد كافئوا حضرته عليه السلام على هذه الخدمة العظيمة بالسباب والشتائم بكثرة لم تكن - في رأيي - من نصيب أي من المبعوثين من عند الله تعالى. فأرى أن السباب والشتائم التي قد كالها له المشايخ في يوم واحد وفي جلسة واحدة لم يتعرض لـــها أي من الأنبياء في عشر سنين، بل لم يكن العلماء في العصور الخالية بذيئي اللسان مثل هؤلاء المشايخ أبدًا. وسننتقم

منهم على ظلمهم بواسطة الرسول ﷺ يوم القيامة، فإنه ﷺ لا بد أن يبدي سخطه على هؤلاء الظالمين، وسيضع ضماد السكينة على قلوبنا الجريحة، إن شاء الله تعالى.

وليكن مفهومًا أن قوله تعالى ﴿فلا تعجَلْ عليهم﴾ لا يعني أن نكفّ عن الدعاء على أعداء الإسلام هؤلاء بأي شكل كان، إنما المراد أن على المؤمنين ألا يضيقوا منهم ذرعًا ولا يدَعوا اليأس يستولي عليهم؛ لأن هناك أدعية لا حرج فيها مبدئيًا. فمثلاً يجوز لنا تمامًا أن نقول يا رب اكسرْ شوكة المسيحيين كما قال سيدنا المسيح الموعود عليه السلام في دعائه عليهم في بيت شعر لـــه فقال:

يا ربِّ سحِّقْهم كسَحْقِك طاغـــيًا وَانـــزلْ بساحتهم لـــهدمِ مكانهم

(نور الحق: الجزء الأول ص ١٢٦)

ولكنه دعاء مبدئي، إذ لا علاقة لـــه بأي عملية خاصة منهم، فلم يقل مثلاً يا رب، دمّرهم لأنهم قد شنوا الهجوم على فلان، وإنما هو دعاء مبدئي، حيث تمنى كسر شوكة المسيحيين. ولا بأس في القيام بمثل هذه الأدعية ضدهم، ولكن لا يجوز الدعاء عليهم بسبب فعل معين لهم.

وباختصار، إن الله تعالى قد أوضح في ﴿فلا تَعجَلْ عليهم﴾ مسألة الجهاد تمامًا، وبيّن أنه قد جعل لهلاك هؤلاء القوم موعدًا، وأنه تعالى يعدّ ساعات هلاكهم عدًّا. وعندما يحل ذلك الموعد سوف يبطش بهم بنفسه ﷻ. أما أنتم فماذا عسى أن تفعلوه؟ إنكم لن تستطيعوا أن تفعلوا شيئًا، بل نحن الذين نقوم بكل شيء.

يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٦﴾

شرح الكلمات:

وفدًا: قال صاحب المفردات في تفسير كلمة "الوفد": "هم الذين يقدِمون على الملوك مستنجِزين الحوائجَ".

التفسير: مما لا شك فيه أن هذه الآية وما بعدها تنطبق على الحياة الآخرة أيضًا، وسيكون معناها أن المؤمنين سيُحضرون عند الله تعالى مجتمعين. ولكن السؤال

الذي يفرض نفسه هنا هو أن الحديث هنا يدور حول التقدم المادي الذي ستحققه الشعوب المسيحية؛ ولا يمكن لمؤمن أن يقول عند رؤية تقدمهم المادي: حسنًا إذا كانوا قد حققوا التقدم المادي في الدنيا فسيعذبهم الله تعالى في الآخرة. وإنما يتمنى المؤمن أن يهينهم الله تعالى ويخزيهم أمام عينيه، ويجعل الإسلام غالبًا هنا في الدنيا. صحيح أنه لا يمكننا أن نغض الطرف عن المفهوم الذي يخص الآخرة لأن كلمات هذه الآية تنطبق على الآخرة أيضًا، بمعنى أن المؤمنين سيُحضَرون هناك عند الله تعالى مجتمعين لينالوا الجوائز والمكافآت؛ ولكن ما أركز عليه هو أن هذه السورة كلها تتحدث عن التقدم المادي والقوة المادية للمسيحيين، لذا فالوعد بهلاكهم في الآخرة فقط يبدو قولاً تافهًا جدًّا. إذا كان هؤلاء سيهلكون في الآخرة فحسب فكيف يمكن أن تصدق الدنيا قولنا إن هؤلاء على الباطل؟ إنها ستقول لنا كلا، فإنهم قد عاشوا في متعة ورخاء أمام أعيننا. فلا مناص لنا إذًا من تفسير قوله تعالى ﴿يومَ نحشر المتقين إلى الرحمن وفدًا﴾ بما ينطبق على هذه الدنيا أيضًا. والمفهوم الذي ينطبق على هذه الحياة الدنيا إنما هو أنه حين يأتي موعد قرارنا بصدد هؤلاء القوم سنلقي في قلوب المؤمنين بأن يجتمعوا ويدعوا الآن لهلاكهم دعاء جماعيًّا. والصلاة التي نؤديها يوميًّا والتي يجتمع فيها المؤمنون أمام الله تعالى هي نوع من الحشر الذي تشير إليه هذه الآية. فالمعنى أنه يوم يأتي موعد عذابهم سنذكي جذوة الحماس في قلوب المؤمنين، ونقول لهم ها قد حان الأوان الذي كنتم لـــه منتظرين؛ فتعالوا ابتهلوا إلينا حتى ننفذ فيهم قرارنا بالهلاك.

علمًا أن لفظ الوفد يُستعمل لقوم يحضرون الملك بحاجاتهم، ويحضر المسلمون عند الله تعالى بحاجاتهم على شكل جماعة خمس مرات يوميًا من خلال الصلوات؛ وهذا يعني أن كل المفاهيم التي تنطوي عليها كلمة "الوفد" موجودة في صلاة المسلمين. فلفظ "الوفد" يقتضي أن تكون هناك جماعة، وأن تكون لها حاجة وبُغية، وأن يكون لباسهم جميلاً لأنهم ذاهبون للمثول أمام ملك. وكل هذه الأمور متوفرة في الصلاة، حيث تؤدَّى الصلاة جماعةً، ويَعرض المصلون في صلاتهم حاجاتهم على الله تعالى، كما أنهم مأمورون بأداء الصلاة بثياب نظيفة طاهرة، حيث قال الله تعالى

﴿يا بني آدمَ خُذُوا زينتَكم عند كل مسجد﴾(الأعراف: ٣٢)، ولذلك أمر الشرع بالوضوء قبل الصلاة، وأن تؤدى الصلاة بثياب طاهرة، وأن لا يؤكل شيء ذو رائحة كريهة قبل الصلاة؟ ثم إن المصلي عندما يقف أمام الله تعالى في الصلاة يقول ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾. إذًا فالصلاة أفضل صورة للوفد، وبالتالي ستعني هذه الآية أننا سنلقي يومئذ في قلوب المؤمنين أن يدعونا لهلاك هؤلاء.

أما إذا طبّقنا قوله تعالى ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدًا﴾ على الحياة بعد الموت توصلنا إلى النتيجة أن البعث نوعان: بعث فردي وبعث جماعي.

ويتضح من القرآن الكريم أن كل إنسان ينال الحياة بعد الموت، ولكنها حياة فردية. كما يخبرنا القرآن الكريم ويفصّل لنا الحديث أن هناك بعثًا يُحشر فيه الناس جميعًا إلى الله تعالى (الترمذي: أبواب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحشر). وهناك فرق بين البعث الفردي والبعث الجماعي. والذين لا يُعمِلون الفكر والتدبر جيدًا يصابون بالتشويش حين يقال لهم من جهة إن كل إنسان ينال بعد الموت حياة جديدة على الفور، ومن جهة أخرى يقال لهم إن كل الناس سيُجمَعون في يوم من الأيام. فما العلاقة بين القولين؟

إن هذا الاعتراض ناشئ عن قلة التدبر كما قلت. إنهم لم يدركوا أن البعث نوعان: بعثٌ يبدأ بعد موت الإنسان مباشرة حيث يتزود بقوى وطاقات جديدة يشعر بها نعم الحياة الآخرة أو عذابها. ولكنه، في تلك الحالة، يشبه ولدًا لا يزال في سن الطفولة أو الصغر. ثم بعد ذلك حينما يكون الناس جميعًا مزوَّدين بقوى وقدرات تمكّنهم من الإحساس الكامل بالعذاب والثواب، فيشبهون الشاب البالغ القادر على التمتع بنعم الدنيا كلها، عندها سيُحشر الناس جميعًا، مؤمنين وكافرين. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿النارُ يُعرَضون عليها غُدُوًّا وعشيًّا ويومَ تقوم الساعة أَدْخِلوا آلَ فرعون أشدَّ العذابِ﴾(غافر: ٤٧).. أي أن آل فرعون يُعرضون على النار صباحًا ومساء، ولكن حين يحل يوم القيامة نصدر الأمر بإلقائهم في أشد العذاب.

كما ورد في الحديث أنه حين يأتي يوم القيامة يُمَدّ على جهنم جسرٌ هو أحدُّ من السيف وأدقّ من الشعر، ولا بد للجميع من المرور عليه. فمنهم من سيمرّ عليه بسرعة البرق، ومنهم من يمرّ عليه بسرعة الريح، ومنهم من يمرّ عليه مثل الطير، ومنهم من يجري عليه كأجود الخيل، ومنهم من يجرّ نفسه عليه كالأعرج والكسيح، وأما الكافرون والمنافقون فيُقطعون به قطعًا ويسقطون في الجحيم (الدر المنثور، المستدرك: كتاب التفسير).

إذًا فهناك حشرانِ: حشرٌ فردي، وحشر جماعي. وهذه الآية تتحدث عن الحشر الثاني، معلنة أنه ليس هناك حشر فردي فحسب، بل يكون حشر جماعي أيضًا.

لقد اختلف المفسرون في قول الله تعالى ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدًا﴾، فيما إذا كانوا يُحشَرون إلى الجنة أم إلى الله تعالى. فقال بعضهم: يُحشَرون إلى الجنة، ذلك لأن الجنة مسكن لله تعالى فقيل إنهم يُحشرون إلى الرحمن. فمن حُشر إلى الجنة كأنما حُشر إلى الله تعالى. وحجتهم على ذلك قول إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم ﴿إني ذاهبٌ إلى ربي سيَهْدِينِ﴾(الصافات: ١٠٠). وقد قال هذا إني مهاجر إلى ربي حين أراد الهجرة إلى أرض كنعان التي اختارها الله تعالى وطنًا جديدًا لإبراهيم. فكما جاز لإبراهيم أن يقول ﴿إني ذاهبٌ إلى ربي سيَهْدِينِ﴾ لدى هجرته إلى المكان الذي اختاره الله تعالى، كذلك عُبّر عن ذهاب هؤلاء إلى الجنة بقوله تعالى ﴿نحشر المتقين إلى الرحمن وفدًا﴾ (البغوي، والقرطبي).

كذلك ورد في الحديث "مَن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله" (البخاري: كتاب الإيمان، باب النيّة في الإيمان).. مع أن هذا المؤمن عندها كان يهاجر إلى المدينة في الواقع.

فثبت من ذلك أن الذهاب إلى مقام موعود أو مختار من قبل الله تعالى يكون بمنـــزلة الذهاب إلى الله تعالى.

بينما قال غيرهم: إنهم يُحشرون إلى الله تعالى، حيث ورد في الحديث أنهم سيؤخذون أوّلاً إلى الله تعالى ثم إلى الجنة (البخاري: كتاب صفة الجنة، باب في خلود أهل الجنة).

وقد اختلف المفسرون كل هذا الاختلاف لأنهم اعتبروا الله تعالى كائنًا مجسدًا، وبالتالي قاموا بتحديد مكان له. والحق أن الله تعالى موجود في كل مكان بحسب القرآن الكريم والحديث الشريف. فكان في المدينة إذا تمت الهجرة إليها، وكان في الحبشة إذا هاجر المسلمون إليها، وهو موجود حيثما ذهب عباده الأخيار، بل هو في كل مكان بالنسبة للكفار أيضًا. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿والذين كفروا أعمالُهم كسراب بقيعة يحسَبه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجَد اللهَ عنده فوفّاه حسابَه﴾(النور: ٤٠). فهنا قد اعتُبر وصول الكافر إلى مكان هلاكه بمثابة لقائه مع الله تعالى.

ويخبرنا الله تعالى أن المؤمنين حيثما يذهبون يرونه ﷻ حيث قال تعالى ﴿فأينما تُولّوا فثَمَّ وجهُ الله﴾(البقرة: ١١٦).

كما يقول الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللهَ يدُ اللهِ فوق أيديهم﴾(الفتح: ١١). فاليد التي يبايع عليها الناس إنما كانت يدَ النبي ﷺ في الحقيقة، ولكن الله تعالى يعدّها يدًا لـــه ﷻ. فهذه الآية أيضًا تؤكد أن المؤمن حيثما يذهب ير الله تعالى. كما أن الكافر أيضًا حيثما يذهب ير الله تعالى ولكن على شكل العذاب.

قصارى القول إن الله تعالى ليس محدودًا في مكان معين، كما أنه ليس مجسدًا. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ونحنُ أقربُ إليه مِن حبلِ الوريدِ﴾(ق: ١٧). فمن الغباء أن نقول عن الذي هو محيط بنا، والذي هو منـــزه عن أن يتجسد وأن يُحدَّد، أنه جالس في مكان محدد، وأن المؤمنين سيذهبون لزيارته راكبين الجياد.

ورد في الحديث أنه لما نـــزلت هذه الآية قال عليٌّ ﷺ يا رسول الله ﷺ : "إني قد رأيت الملوك ووفودهم، فلم أر وفدًا إلا ركبانًا، فما وفدُ الله؟" فقال رسول الله ﷺ إنهم يؤتَون بنُوقٍ مِن نوق الجنة فيركبونها. (انظر القرطبي). أي أن الوفود تذهب لزيارة الملوك على صهوات الخيل في ثياب جميلة غالية وبعزٍّ ووقار، فكيف يذهب هذا الوفد للقاء الله تعالى؟ فقال النبي ﷺ: سيؤتى بإبل من الجنة فيذهبون للقاء الله تعالى راكبين عليها.

وقد نقل الثعلبي هذه الرواية بطريق آخر حيث قال إن المؤمنين حين ينصرفون من عند الله تعالى بعد زيارته سيؤتون بالركاب (المرجع السابق).. أي أنهم يذهبون لزيارة الله تعالى مشاة، وعندما يخرجون من عند الله تعالى سيُعطَون المطايا.

وعن ابن عباس ﷺ قال رسول الله ﷺ: "يأيها الناس إنكم لتُحشَرون إلى الله تعالى حُفاةً عُراةً غُرْلاً" (البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله ﷻ: واتخذ الله إبراهيمَ خليلا). فلا مجال لركوبهم المطايا في هذه الحالة. ولذا قد استنتج البعض من ذلك أنهم يذهبون للقاء الله تعالى عراةً مشاةً، ويرجعون ركبانًا في ثياب جميلة.

وهنا أيضًا قد ارتكب القوم الخطأ نفسه، حيث تمسكوا بحرفية هذه التعابير. والحق أن الثياب والمطايا في الجنة ليست كما هي في الدنيا، بل المراد أنه سيسود الناس فزعٌ عظيم بعد البعث فورًا، ولكن سيزول الفزع عن المؤمنين فورًا، ويقابَلون بالحفاوة والتكريم. وهذا ما يؤكده حديث الشفاعة أيضًا حيث ورد فيه أن الناس سيكونون في فزعٍ كبير بعد البعث، ولكن المؤمنين ستنـــزل على قلوبهم السكينة والهدوء شيئًا فشيئًا (البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ذرّيّةَ مَن حملنا مع نوح).

أما لقاؤهم بالله تعالى فهو أيضًا كلقاء شيء محدود بمن هو غير محدود، وليس المراد منه أن الله تعالى سيكون جالسًا على العرش، وسيدخل عليه المؤمنون لزيارته راكبين الخيل والجِمال. لا جرم أن المؤمنين سيحظون هنا بلقاء الله تعالى، ولكن هذا اللقاء سيتم هناك كما يتم في الدنيا بين الله وعباده المختارين. والفرق الوحيد أن اللقاء في الآخرة سيكون في أكمل صورة وأروعها إذ لن تكون لنا هناك هذه الأجساد المادية. وليس المراد أن الله تعالى سيتحدد في الآخرة في مكان ما فنراه هناك. إذا كنا نحن الذين هم محدودون هنا سنصبح غير محدودين هناك متحررين من قيود الجسد المادي في الآخرة، فمن غير المعقول تمامًا أن نظن أن الله الذي هو غير محدود الآن سيصير عندئذ محدودًا. لا شك أن كلمة "حفاةً عراةً" توهم في الظاهر أن المؤمنين ربما سيذهبون في الآخرة للقاء الله تعالى كما يذهب الناس لزيارة الملوك مشاةً وركبانًا، ولكن هذا غلط. ذلك لأننا نرى أن المؤمن في الدنيا يكون

نائمًا بالليل، وقد خلــع حذاءه، ووضع معظم ثيابه أيضًا، ومع ذلك يلقى الله تعالى.

لقد ذكرتُ في مناسبات عديدة أنني قد رأيت عبارة لسيدنا المسيح الموعود عليه السلام قد كتبها في بعض دفاتره، يقول فيها: يا رب، يقول الناس أنني سأتركك، وأَنَّى لي أن أتركك. عندما يكون الناس كلهم نيامًا، وحينما يبتعد عني أصدقائي وأقاربي كلهم، بل إن نفسي هي الأخرى تنفصل عني، فإنك تزورني وتقول لي: لا تحزن، إني معك.

فإذا كان المسيح الموعود عليه السلام يلقى الله تعالى وهو نائم، فما الغرابة في أن يحظى جميع المؤمنين بلقاء روحاني مع الله تعالى مجتمعين، فيتفضل عليهم بالنعم والجوائز. إذا كان لقاء الإنسان بالله تعالى في حالة من الغفوة ممكنًا فكيف يستحيل أن يلقاه حافيًا أو عاريًا؟ كلا، بل من الممكن تمامًا من الناحية الروحانية أن يكون الإنسان حافيًا وعاريًا وغير مختتن أيضًا في وقت واحد، ومع ذلك يتلقى الجوائز والصلات من الله تعالى. كل ما في الأمر هو أن يسعى الإنسان لتفهم هذه الأمور بمنظور روحاني عوضًا عن أن ينظر إليها بمنظور ظاهري.

فبعض الأحيان يكون المرء مستلقيًا وهو ظمآن، فيُسقى كأس محبة الله في حالة من الكشف، فتسري الطراوة في جسده المادي أيضًا، ويزول عطشه. فهذا الإنسان، وإن كان قد سُقي كأسًا زال منها عطشه إلا أنه يعني من الناحية الروحانية أن الله تعالى قد ألقى حبه في قلبه. وبالمثل لما عُرض على النبي ﷺ في كشف الإسراء الماء والخمر واللبن تناول إناءَ اللبن ورفض الماء والخمر؛ وكان تأويل ذلك أن أمته ﷺ لن تهلك وستظل تتمتع بالمعارف الإلهية (دلائل النبوة للبيهقي مجلد ٢ باب الإسراء برسول الله ﷺ). بيد أننا يمكننا أن نقول أيضًا على سبيل المجاز أن جسد النبي ﷺ شعر بالعطش في ذلك الوقت، فأعطاه الله تعالى إناء اللبن، فشربه حتى ارتوى وزال عطشه. إن العلة الأساسية إنما هي أن الإنسان يعتبر هذه الأمور مادية، مع أنه لا علاقة لها بالجسد والمادة، وإنما هي أمور روحانية بحتة. لو أنه نظر إلى كل هذه الأشياء وحاول فهمها بمنظور روحاني لوجد أن كون الرجل حافيًا أو

عاريًا أو غير مختتن أو راكبًا على خيل أو جمل لكل واحد منه مدلول في العالم الروحاني. لو أنه أخذ هذا الأمر في الحسبان، ثم قرأ في الحديث أمورًا أكثر غرابة من هذا أيضًا لأدرك بدون أي صعوبة أن الله تعالى إنما صور بتعبيرات مادية بعض المعاني الروحانية تقريبًا لها إلى أفهامنا. فكل ظاهر ينطوي على باطن أيضًا، وذلك الباطن هو الشيء الحقيقي، وهو أمر روحاني بحت، وأسمى تمامًا من كل الماديات.

وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾

شرح الكلمات:

نسوق: ساق الماشيةَ سَوقًا وسِياقًا واستاقَ استياقًا: حثَّها على السير مِن خَلْفٍ (الأقرب). وساق الحديث: سرَده (المنجد).

التفسير: يسمى أمير الجيش في اللغة العربية قائدًا، لأنه يقودهم أي يمشي أمامهم. ولكن في الغرب يكون أمير الجيش في الوراء عادة، فهو إذًا سائق لا قائد بحسب اللغة العربية، لأن السائق هو من يمشي في الوراء مثل سائق الإبل الذي يسوقها من وراءها، أو سائق المجرمين الذي يحثهم من ورائهم على المشي إلى الأمام لعدم رغبتهم في ذلك. والدابة تريد أن تذهب حيثما تشاء، بينما يريد صاحبها أن يأخذها للعمل أو للسقي، لذا فهي لا تمشي برغبتها وإنما برغبة صاحبها. وكذلك المجرمون لا يودّون أن يُعرضوا على الحاكم فلذا يكون لهم سائق يسوقهم إليه. فالسوق يُستعمل للدواب كالإبل غيرها، وأيضًا للمجرمين. كما يُستخدم للضعفاء أيضًا حيث يقول الله تعالى في القرآن الكريم أنه إذا نـــزل الأمر بالقتال رأيتَ فئة من المؤمنين ﴿كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾(الأنفال: ٧). ذلك لأنهم يفكرون في أنفسهم مرارًا بأنهم كانوا يؤمرون بأن يرحموا الناس، ويعاملوا كل واحد بالمحبة والرفق واللطف والإحسان، فكيف يأمرهم الله الآن بحرب الناس! فبما أنهم يرون هذا الحكم خلافًا لما أمروا به من قبل، فيشق على أنفسهم. فليس المراد من هذه الآية أنهم أرادوا أن يخالفوا عن أمر الله تعالى، وإنما المعنى أنهم استغربوا من

هذا الأمر إذ لم يكن العمل به بالأمر السهل لهم، حيث كان عليهم أن يحاربوا إخوانهم وأقاربهم، وهو أمر يشق على المرء بطبيعة الحال. ولكن العمل بالأمر نفسه هو الذي جعلهم يفوزون برضوان الله تعالى، فسيقوا إلى الجنة.

وهنا ينشأ السؤال بأن القرآن الكريم لم يستعمل لفظ "السوق" للمجرمين والضعفاء فقط، بل للمؤمنين أيضًا. قال الله تعالى ﴿وسيقَ الذين اتّقَوا ربَّهم إلى الجنة زُمَرًا﴾(الزمر: ٧٤)، فما معنى هذه الآية إذا كان السوق هو الحث والدفع من الوراء؟

أما المفسرون فقالوا في الجواب: ورد السوق للكفار بمعنى حثهم ودفعهم من ورائهم، بينما ورد للمؤمنين بمعنى سوق ركابهم.. أي أن الله تعالى سيكون في انتظارهم، فتسوق الملائكة ركابهم سوقًا حتى يصلوا إلى الله تعالى بأسرع ما يمكن (الرازي).

بيد أن هناك إجابتين أخريين عندي. الأولى أن الله تعالى قال عن الكافرين قبل هذه الآية مباشرة ﴿وسيقَ الذين كفروا إلى جهنم زُمَرًا﴾(الزمر: ٧٢).. فاستعمل للمؤمنين أيضًا نفس الفعل على سبيل المجاورة فحسب. فسوق المؤمنين إنما يعني هنا الذهاب بهم من دون أدنى دفع لهم من الوراء أو الأمام أو من دون أية إشارة على إهانتهم.

والإجابة الثانية هي أن هذه الكلمة تصوير لما سيكون عليه الكافرون يوم القيامة ولما كان عليه المؤمنون في الدنيا. فالكافر يفر من العذاب، وأما المؤمن فيهرب من التنعم والرخاء، فإنه لا يريد إلا لقاء الله تعالى. فإذا كان الكافر يفر من المشقة والعناء، فإن المؤمن يعاف عيشة الترف والرخاء، ولكن الله تعالى يمنحه النعم والرخاء رغم أنفه. وهذا كما قال حضرة سيد عبد القادر الجيلاني- رحمة الله عليه- إني لا آكل الشهي من الطعام ولا ألبس الغالي من الثياب ما لم يرغمني الله على ذلك مستحلفًا بذاته ﷻ (قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر ص ٣٦).

إذًا فكلمة السوق تصوير لباطن المؤمن، ولا تعني أبدًا بأنه سيُدفع إلى الجنة فعلاً.

وكما قلت إن السائق يقابله القائد. ولفظ القائد ينطوي على ثلاث دلالات: شجاعة القائد، وبشاشة جنوده، وحثّه الآخرين على العمل من خلال نموذجه الحسن. والحق أن القائد الناجح إنما هو ذلك الذي يتحلى بهذه المزايا الثلاث. أي أنه ببسالته ونموذجه الحسن يرفع معنويات جنوده ويذكي فيهم الحماس للإقدام والتضحية بكل غال ورخيص، كما يجد بنفسه البشاشة واللذة في الموت في سبيل الله تعالى؛ ذلك لأن القائد يجري أمام الجيش للقاء العدو بينما يأتي جنوده وراءه. كما أن القائد الناجح من يجد جنوده أيضًا البشاشة في القتال، حيث إن كلمة القائد نفسها تتضمن الدلالة على أنه ليس بحاجة إلى النظر إلى الوراء، فجنوده يشعرون بمسؤوليتهم تمامًا، وسيلحقونه بكل بشاشة من تلقاء أنفسهم.

لقد ذُكر في تاريخ أمريكا حادث رائع يبين كيف أن القائد الناجح يفتح بأسوته ونموذجه قلوب جنوده وزملائه. كانت الولايات المتحدة الأمريكية تحت حكم الإنجليز في أول الأمر. ثم بعد أن ظلوا مستعمَرين فترة طويلة نشأت بنيهم حركة تحرُّر، ولكن لم يكن عندهم جنود ولا عتاد كاف لمقاومة المستعمِرين الإنجليز الذين كان عندهم الجنود وكانوا يملكون العتاد بكل أنواعه. فتطوع الفلاحون والعمال الأمريكان لقتال المستعمرين، واندلعت نيران الثورة في كل أنحاء البلد. ولما تقوت حركة التحرير اختاروا لهم قائدًا اسمه واشنطون، وهو الذي أُنشئت باسمه مدينة واشنطون فيما بعد. لقد كان رجلاً عاديًا، ولم يكن ذا خبرة كبيرة في فنون الحرب والقتال، ولكنه كان قلبه مفعمًا بالإخلاص والحماس لبلده وشعبه. فكان يتجول في البلد كله، يلقي الخطب ويلهب الحماس في القوم للجد والاجتهاد من أجل الحرية لأنها نعمة عظمى. فذات مرة رأى أثناء بعض جولاته أن الثوار يبنون قلعة وأن أحد مساعديه الذي اسمه كاربول يشرف عليهم واقفًا بجنبهم. وكان العاملون أربعة أو خمسة فقط من الجنود الثوار، وكانوا يحاولون رفع أعمدة خشبية ضخمة، ولكنهم كانوا يفشلون في ذلك رغم بذلهم الجهد الجهيد. وكان كاربول هذا واقفًا بجنبهم يحثهم بأعلى صوته على رفع الأعمدة، بدون أن يتقدم ويساعدهم في رفعها. وكان واشنطون يمر بهم على صهوة حصان أبيض، فلما رأى هذا المشهد أوقف حصانه،

وسأل القوم عما يفعلون. فقالوا إن الجنود الإنجليز قادمون، فنحن نبني القلعة لحماية جنودنا. فقال فما المشكلة في بناء القلعة إذًا؟ قالوا إن الأعمدة ثقيلة جدًّا ولا نقدر على رفعها. فتوجه واشنطون إلى كاربول وقال: لم لا تساعدهم؟ قال إنما أنا مسؤول كبير، وليس علي إلا الإشراف على عملهم. فنـــزل واشنطون من توّه من فرسه، وأخذ يساعد الجنود في رفع الأعمدة حتى رفعوها. فلما أراد الانصراف وهمّ أن يركب حصانه قال لـــه كاربول: أريد أن أشكرك يا سيدي، من قِبلي ونيابةً عن قومي. فأجابه واشنطون: العفو، يا سيدي. كل ما أريد منك أنك إذا كنتَ في مشكلة كهذه واحتجت إلى المساعدة فعليك أن تدعو قائدك الأعلى واشنطون!

هذه هي أسوة القائد. إنه يقدم نفسه لكل عمل وخدمة، ولا يتخلف عند التضحية عن أحد، بل يتصدر الآخرين، ويحثهم على العمل بنموذجه الحسن. وإذا لم ينتفع الناس من نموذج القائد الرائع فلا شك أن حظهم تعس جدًّا.

ولقد سميتُ المسؤولَ الأعلى في تنظيم "خدام الأحمدية" في كل فرع من جماعتنا "القائدَ" لكي يفتح قلوب الناس بنموذجه الطيب.

أما كلمة ﴿وِردًا﴾ في قوله تعالى ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم وِردًا﴾ فمن معانيها: الإشرافُ على الماء؛ والعطَشُ؛ والنصيب من الماء؛ الماءُ الذي يُورَد؛ والقوم الذين يرِدون الماءَ (الأقرب).

لقد بين الله تعالى في هذه الآية أن الكافرين يُحشَرون حشرًا جماعيًّا أيضًا، ولكن سيخاف بعضهم من الاقتراب من البعض الآخر، فلذا يُقهرون بالضرب على التجمع، وأخيرًا يُدفعون إلى جهنم وهم بحاجة إلى أن يؤخذوا إلى حيث يزال عطشهم. وهذا بيان لشدة عذابهم بمعنى أنهم سيكونون بحاجة شديدة لأن يجدوا مكانًا يجدون فيه الماء والراحة، ومع ذلك سيُدعّون إلى جهنم دعًّا، وهي مكان يبلغ من الهول والذعر والعذاب بحيث يكرهون التوجه إليها.

لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

شرح الكلمات:

الشفاعة: الشفعُ: ضمُّ الشيء إلى مثله؛ وقيل: الشفعُ: المخلوقاتُ من حيث إنها مركَّبات كما قال ﴿ومن كل شيء خلَقْنا زوجين﴾ (الأقرب).

وورد في المفردات: الشفاعة الانضمامُ إلى آخَرَ ناصرًا لـــه وسائلاً عنه، وأكثرُ ما يُستعمل في انضمامِ مَن هو أعلى حرمةً ومرتبةً إلى من هو أدنى؛ ومنه الشفاعةُ في القيامة قال تعالى ﴿لا يملكون الشفاعةَ إلا مَن اتّخذَ عند الرحمن عهدًا﴾، وقال تعالى ﴿ولا يشفَعون إلا لمن ارتضى﴾ وقال تعالى ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾.

التفسير: إذا أخذنا مفهوم الشفاعة المذكور أعلاه فإن مسألة الشفاعة تنحلّ تمامًا. هناك فكرة شائعة بين المسلمين بشكل عام أن كل مسلم ينطق بالشهادة سيشفع لـــه النبي ﷺ يوم القيامة، بل يقولون بكل فخر أن الشفاعة ليست إلا من أجل العصاة والآثمين. مع أن الشفاعة لا بد لها من تشابه وتماثل بين المرء والرسول ﷺ، وإنما يستحق شفاعته ﷺ من سعى جهده لأن يكون مثله ﷺ، ولكنه لم ينجح في ذلك كما ينبغي جراء بعض تقصيراته؛ وسدًّا لهذا الفراغ سوف يتوسل النبي ﷺ إلى ربه ﷻ ويقول يا رب، قد بذل هذا قصارى جهده ليكون مثيلاً لي، ولكن بعض تقصيراته حالت دون أن يحقق هدفه تمامًا، فألتمس منك أن ترحمه، وتعفو عن تقصيره، ولا تحرمه من قربك.

فالشفاعة ليست للآثمين العصاة، بل لها قوانين وشروط. أولها أن يكون المرء مثيلاً للشافع، وإلا فلن يشفع لـــه.

وثانيها أن يكون الله تعالى راضيًا عنه، لأنه تعالى يقول ﴿ولا يشفَعون إلا لمن ارتضى﴾(الأنبياء: ٢٩).. أي لكي يستحق المرء الشفاعة لا بد أن يكون الله تعالى راضيًا عنه.

وثالثها أن يأذن الله لشفاعته لقوله تعالى ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾(يونس: ٤).

فلو كان الإثم يجعل المرء مستحقًا للشفاعة، كما يظن عامة المسلمين، فما الحاجة لأن يضع الله تعالى هذه الشروط الثلاثة: الشفاعة (أي المماثلة) والرضا والإذن. بل يجب أن يقول الله تعالى في هذه الحالة إن كل من يصبح آثمًا فإن محمدًا رسول الله ﷺ سيتولى شفاعته يوم القيامة.

الحق أن المرء لا يستحق شفاعة الرسول ﷺ أبدًا ما لم يصبح مثيلاً لـــه. إنما مثل الشفاعة كأن تذهب إلى السوق لشراء فاكهة المانجو من نوع معين، فتذكر للبائع حاجتك. فيعطيك أجود ما عنده من حبات هذا النوع، ولكنك تريد المزيد وهي غير متوافرة لديه، فتقول لـــه: حسنًا أعطِني من النوع الذي يشبهه جودةً، فيعطيك حبات من نوع آخر ليس مثله تمامًا ولكنه مقارب لـــه؛ فتأخذها أيضًا. ولكنك لن تأخذ مكان المانجو حبات من نوى المانجو أو قشورًا للموز أو حذاء باليًا مثلا، إنما تأخذ المانجو من نوع مقارب وإن كانت أقل جودة وأصغر حجمًا بعض الشيء.

وبالمثل لا بد للشفاعة من نوع من المماثلة. إذ تعني الشفاعة أن الذين يسعون جاهدين ليكونوا أشباهًا للنبي ﷺ ومع ذلك يظل بعض الفراغ في كمالهم الروحاني، سيتوسل النبي ﷺ إلى الله تعالى يوم القيامة من أجلهم ويقول يا رب، لقد سعى هؤلاء أن يكونوا أشباهًا وأمثالاً لي، ولكن بقي في أعمالهم بعض النقص، فألتمس إليك أن تسد برحمتك هذا النقصان. وليست الشفاعة أنهم من ناحية يزنون ويفسدون ويقتلون، ويرفعون هتافات باطلة، ويرمون الآخرين بتهم شنيعة، ومع ذلك يقولون إن شفاعة النبي ﷺ حق الآثمين المذنبين. كلا، بل إن الذي يسعى جاهدًا لاتباع خطوات الرسول ﷺ، ويسعى كل السعي لاقتداء الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – ولكن يظل في أعماله بعض النقص، فإن الله تعالى سيكشف على النبي ﷺ جهوده ومساعيه، فيتوسل النبي ﷺ إلى الله تعالى مسترحمًا لـــه ويقول يا رب لقد بذل عبدك هذا جهده كما ترى، ومع ذلك تخلّف، فسُدَّ له هذا الخلل بفضلك ورحمتك. وهذا ما يؤكده أهل اللغة أيضًا حيث يقولون لا بد للشفاعة من أن يكون الواحد مثل الآخر، فإنما الشفاعة هي ضم شيء أدنى إلى

شيء أعلى مثله. وهذه هي الحقيقة التي يبينها الله تعالى هنا بقوله ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا﴾.

لقد تبين من هذه الآية جليًّا أن المسيح عليه السلام الذي قد اتخذه المسيحيون ابنًا لله تعالى لن يملك حق الشفاعة لأحد يوم القيامة. ذلك لأن الله تعالى قد أخبر بعد ذكر الشفاعة مباشرة في الآيات التالية أن اتخاذ ابن لله تعالى معصية كبيرة. فكيف يمكن أن يُوهب حق الشفاعة لمن يُنسب إليه شيء يثير تصورُه سخط الله تعالى.

واعلم أن المذكور في قوله تعالى ﴿إلا مَن اتخذ عند الرحمن عهدًا﴾ هو نبينا ﷺ، الذي أخبره الله تعالى بالوحي أنه سيقبَل شفاعته يوم القيامة. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: أُعطيتُ خمسًا لم يُعطَهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر؛ وجُعلتْ لي الأرض مسجدًا وطَهورًا، وأيما رجل من أمتي أدركتْه الصلاة فليُصَلِّ؛ وأُحلّتْ لي الغنائمُ؛ وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصةً وبُعثتُ إلى الناس كافة؛ وأُعطيتُ الشفاعةَ" (البخاري، كتاب الصلاة، باب جُعلتْ لي الأرض مسجدًا وطَهورًا).

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال إن الأنبياء كلهم يرفضون أن يتقدموا إلى الله تعالى للشفاعة يوم القيامة، فأقَع ساجدًا لربي عز وجل، "فيقول الله تعالى، يا محمد، ارفَعْ رأسك. سَلْ تُعْطَه، واشْفَعْ تُشفَّعْ" (انظر البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ذرية من حملنا مع نوح).

وينص الله تعالى في القرآن الكريم على كون النبي ﷺ شفيعًا فيقول ﴿وتباركَ الذي لـــه ملكُ السماوات والأرض وما بينهما وعنده علمُ الساعة وإليه تُرجَعون * ولا يملكُ الذين يدعون من دونه الشفاعةَ إلا من شهِد بالحق وهم يعلَمون﴾(الزخرف: ٨٦-٨٧).

فقوله تعالى ﴿ولا يملكُ الذين يَدْعُون من دونه الشفاعةَ إلا من شهِد بالحق وهم يعلَمون﴾ يعني أن الآلهة الباطلة التي يدعوها هؤلاء المشركون من دون الله تعالى لا يملكون حق الشفاعة مطلقًا، إنما يملك حق الشفاعة من يشهد بالحق أي محمد رسول الله ﷺ. وإن الكفار يعلمون هذه الحقيقة لو كانوا من المتدبرين.

لقد تبين من ذلك تمامًا أنه لا يتمتع بحق الشفاعة أحد إلا محمد رسول الله ﷺ، وهذا ما يؤكده الله تعالى هنا أيضًا بقوله ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا﴾.

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾

التفسير: يبين الله تعالى هنا أن هؤلاء يزعمون أن المسيح سيشفع لهم. وأنَّى للمسيح أن يشفع لهم! لقد كان عبدًا موحِّدًا لنا، ولكنهم يتخذونه شريكًا لنا؛ وحيث إنه لا مشابهة بينهم وبين المسيح الموحد، فكيف يمكن أن يتمتعوا بشفاعته. إنما تكون الشفاعة للمثيل المشابه، ولكنهم ليسوا مماثلين للمسيح. إنهم يخالفون تمامًا تعليم المسيح حيث ﴿قالوا اتخذ الرحمن ولدًا﴾، مع أن اتخاذ الولد يتعارض مع صفة الله الرحمن.

علمًا أن هذا لا يعني أبدًا أن المسيحيين كانوا يؤمنون بأن الله رحمن. كلا، إنما هذا أحد أساليب الاستدلال حيث تُربط النتيجة بالأمر الواقع الثابت سواء صدّقها الخصم أم لا. وهذا ما فعل الله تعالى هنا. فبرغم أنهم منكرون لرحمانية الله تعالى، إلا أن الحقيقة أن الله تعالى رحمن، ويستحيل أن يحتاج رحمن إلى ولد، فثبت أن دعوى المسيحيين غلط يقينًا. فأملهم في شفاعة المسيح، رغم هذا الادعاء الباطل، لخطأ فادح.

لَقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾

شرح الكلمات:

إدًّا: ورد في المفردات "قال تعالى ﴿لقد جئتم شيئًا إدًّا﴾.. أي أمرًا منكرًا يقع فيه جلَبةٌ".

اعلم أن المنكرات أنواع، فمن المنكر ما يضحك منه الناس، ومن المنكر ما يغض الناس عنه الطرف، ومن المنكر ما يعبسون منه، ومن المنكر ما يثيرون عليه ضجة

وجلبة. وقد بين الله تعالى باستخدام لفظ ﴿إِدًّا﴾ أن هذا منكر لا تقبله الفطرة الإنسانية، ويثير الناس بسببه جلبة وضجة.

التفسير: لقد صور الله تعالى هنا الشرك بأقبح صورة، مبينًا أن الشرك أمر منكر شنيع مناف للفطرة السليمة، بحيث لا يتمالك الإنسان الشريف من أن يبدي استنكاره الشديد نحوه، ولا يتحمله في أي حال، بل يثير ضده احتجاجًا عنيفًا.

وهذه حقيقة ثابتة. ولذلك تجد المسيحيين الآن يفسرون الثالوث بطريق آخر فرارًا من المطاعن والاعتراضات التي أثارها الإسلام.

ولكن الغريب المؤسف أن الله تعالى يقول هنا إن على كل إنسان أن يرفع الصوت ضد هذه الفتنة الوثنية، ولكن الذين يحاربون هذه الفتنة اليوم بأعلى أصواتهم، جاهدين لتوطيد التوحيد في العالم ليلَ نهارَ، قد أصبحوا عند المسلمين أنفسهم كافرين ملحدين وخارجين عن دائرة الإسلام! إنهم يقابلون المسيحيين الذين يشركون المسيح بالله تعالى بكل حفاوة ومحبة، أما الذين يدعون المسيحيين إلى الإسلام لينتشر التوحيد الإلهي في العالم فيعتبرونهم كافرين!

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩١﴾
أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩٢﴾

شرح الكلمات:

يتفطرن: تفطَّرَ الشيءُ: انشقَّ. وتفطّرَ القضيب: بدأَ نباتُ ورقه. وتفطرت الأرض بالنبات: تصدَّعتْ (الأقرب).

فالفرق بين الفطر والتفطر أن الفطر هو إنشاء الشيء أول مرة. والتفطر هو انشقاق الشيء من شيء آخر.

هَدًّا: الهدّةُ صوتُ وقعِ الحائط (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه قد حدثت ثورة ضد الشرك في السماوات بحيث تكاد تنشق من شدتها، كما يوشك أن ينشق صدر الأرض أيضًا بتأثير الهياج

الحاصل بباطنها بسبب الشرك، وتكاد الجبال تسقط على الأرض من شدة الصدمة مع ضجة هائلة في العالم. بمعنى أن هذه الدعوى ثقيلة الوطأة على السماوات والأرض والجبال كلها. إنها ثقيلة على السماوات بمعنى أنها خلاف المشيئة السماوية.. أي أنها بعيدة كل البعد عن صفات الله تعالى وعن تصور الملائكة. وهي ثقيلة على الأرض بمعنى أنها تتنافى مع الفطرة السليمة. وهي ثقيلة على الجبال بمعنى أنها تتعارض مع عواطف الرقي التي هي أعظم ما في فطرة الإنسان. ذلك لأن عقيدة بُنوّة المسيح تستلزم الإيمان بالفداء والكفارة، والكفارة خلاف للترقيات الإنسانية السامية، ودليل على تردِّي الإنسان وضَعَته. وإن ما تحاول المسيحية إثباته باللجوء إلى الكفارة والبُنوّة، يؤكد الإسلام أنه ممكن للإنسان بإحرازه الترقيات العالية. وهذا يعني أن كلمات "السماوات والأرض والجبال" إنما تشير هنا إلى الكائنات الروحانية المماثلة لها. فكلما أنكر البعض إحراز الإنسان الترقيات الروحانية العالية، وكلما غضّوا الطرف عن صفات الرحمة والعفو والإحسان التي يتصف بها الله تعالى، تفطرت السماء حتمًا، إذ لا يرضى الله ولا ملائكته بهذا الإنكار؛ كما أن الأرض أيضًا ستنشق لأن الناس أيضًا لن يرضوا بهذا الزعم، ثم إن الجبال أيضًا ستنفجر وتتهدم لأن الطراز الأول من الناس أي أنبياء الله تعالى أيضًا لا يرضون بمثل هذا الظن.

إن الإنسان العادي سوف يستنكر هذا التعليم لأنه يرى أن هذا التعليم يسد في وجهه باب الرقي بكل أنواعه. أما الإنسان من الطراز الأول فسوف يستنكره لأنه يقول إنني قد جربت هذا الأمر بنفسي وقد أحرزت هذا الرقي فعلاً، فكيف يزعم هؤلاء الآن أن إحراز مثل هذا الرقي الروحاني مستحيل؟ فما هذا الهراء الذي أسمعه؟ وأما الله مع ملائكته فسيسخط على هذه المزاعم لأنه تعالى سيقول لقد وهبنا هذه النعم فعلاً، فكيف ينكرون بعد ذلك قدرتنا على ذلك؛ زاعمين أن الله تعالى لا يمكن أن يغفر لأحد، ولا أن يتوب على أحد، حتى ينعم عليه بقربه وزلفاه. إذًا فالسماء والأرض والجبال كلهن يَقِفْنَ احتجاجًا على هذا الزعم البغيض، بمعنى أن أهل السماء يكرهونه وكادوا يتفطرون بسببه؛ كما أن الفطرة

الإنسانية أيضًا تصرخ احتجاجًا عليه؛ ﴿وتخرّ الجبال هدًّا﴾.. أي أن أصحاب الروحانية العالية أيضًا يضيقون ذرعًا ويقولون ما هذا الظلم والافتراء، فإننا نتمتع بهذه النعم وهؤلاء ينكرونها!

إنني كلما أحاور منكري الوحي والإلهام أقول لهم دائمًا: ماذا أفعل بأدلتكم في حين أن الله تعالى نفسه يكلّمني. لو أن الله تعالى لم ينـــزل علي إلهاماته فلربما ظننت أن في أدلتكم بعض الثقل والقوة، ولكن كيف يمكن أن تؤثر فيّ حججكم القائلة بعدم نـــزول الوحي والإلهام وأنا أتلقى الإلهام من الله تعالى فعلاً؟ فالشيء الذي قد رأيته وجرّبته بنفسي وأنا من خدام محمد رسول الله ﷺ، كيف يمكنني أن أقول عنه إن المصطفى ﷺ أو المسيح الموعود عليه السلام لم يره ولم يجربه. عندما أسمع الطبيعيين يقولون أن القرآن ليس إلا عبارة عن أفكار عالية لمحمد ﷺ (تفسير القرآن للسير سيد أحمد خان ص ٣٢)، فإني أضحك من قولهم، وأقول ما دمتُ أنا أتلقى الإلهام بكلمات محددة فكيف يستحيل نـــزول كلام الله تعالى على رسول الله ﷺ وهو أعظم مكانة وأعلى شأنًا جدًّا. وكما قلت إن قوله تعالى ﴿وتخرّ الجبال هدًّا﴾ تتضمن هذا المعنى أي أن الروحانيين من الطراز العالي الحائزين على هذه النعم كلها حين يسمعون هذا الهراء يشعرون وكأن هؤلاء المنكرين يحاولون هدم كل المقامات الروحانية السامية التي قد تبوءوها فعلاً.

وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٣﴾

التفسير: إن عقيدة المسيحيين عن بُنوّة المسيح مخالفة تمامًا لصفة الله "الرحمن"، ومن أجل ذلك تجد المسيحية تنكر كون الله تعالى رحمانًا، وتقدم نظرية فداء ابن الله تعالى لخلاص العالم. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: إذا كان صحيحًا أن الله تعالى لا يمكن أن يغفر ذنوب العباد، وأنه تعالى قد نجّا الناس بفداء ابنه، فأين غابت صفة الله "الرحمانية"؟ ذلك لأن رحمانيته ﷻ هي التي كانت ستتسبب في مغفرة الناس، ومن أجل ذلك قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿الرحمنُ * علّمَ

القرآنَ﴾(الرحمن: ٢-٣).. أي أن كلام الله تعالى الذي ينـــزل لهداية الناس إنما هو نتيجة صفة الله الرحمن، حيث تثور رحمانيته حين يرى العباد في الضلال. وكما أن الله تعالى قد خلق في العالم المادي آلاف النعم بدون أن يسأله الناس إياها، كذلك في العالم الروحاني يُنـــزل الله تعالى كلامه الذي ينال العباد النجاة بالعمل به.

إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾

التفسير: أي ما الداعي أن يكون لله ولد وكل شيء خاضع لـــه ﷻ؟ إنما يكون الولد ليعين أباه أو ليخلّد اسمه بعد موته، ولكن ما دام الله تعالى أسمى من أي احتياج، وحاكمًا على كل شيء، فما الذي سيحكم عليه ولده؟

لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾

التفسير: هذا شرح لما سبق، والمراد أن الله تعالى ما دام قد عد كل واحد منهم فما الحاجة إلى ولد لـــه. إنما تكون الحاجة إلى ولد إذا كان هناك شيء لا يقدر الله ﷻ على القيام به.

وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

التفسير: يزعم المسيحيون أن المسيح قد حمل عنهم أعباءهم، ولكن الله تعالى يدحض زعمهم هذا ويقول إن هذا العالم كما هو خاضع لقوانينه تعالى فسيخضع الناس بعد موتهم أيضًا لقوانينه هو ﷻ، وسيمثل كل إنسان أمام الله للحساب فردًا. فمن الخطأ الزعم أن المسيح قد مات على الصليب مكانهم، وحمل عنهم وزرهم. كلا، بل كل إنسان سيحمل صليبه بنفسه كما قال المسيح عليه السلام نفسه: "ومن لا يحمِلْ صليبَه ويأتي ورائي فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا" (لوقا ١٤: ٢٧). وقال أيضًا: "من أراد أن يأتي ورائي فليُنكِرْ نفسه ويحمِلْ صليبَه ويَتْبَعْني (مرقس ٨: ٣٤).

فعندي أن هذه الآية القرآنية تؤمي إلى هذا الأمر نفسه، حيث يقول الله تعالى إن المسيح ما دام قد صرح بنفسه أن على كل واحد أن يحمل صليبه فكيف تظنون أنه قد حمل عنكم كل أعبائكم؟

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾

شرح الكلمات:

وُدًّا: الودّ هو الحب الشديد الذي يقوّي الصلة بين المحب والمحبوب جدًّا حتى يرتبط الواحد بالآخر. إن الود يحتوي على مفهوم مماثل للدابة المربوطة بالوتد، فيكون بين الله والعبد رابطة حب قوية لا انفصام لها. والوُدّ والوَدّ والوِدّ بمعنى واحد.

وتتضح حقيقة معنى الود من حيث إن الوُدّ يعني الوتد أيضًا (المفردات: ودد)، لأن الحيوان يُربَط به. فالود هو المحبة التي تربط المحب بالمحبوب كما يربط الوتد الحيوان بمكان ما. وفي اللغة العربية كلمات كثيرة للتعبير عن الأُنس والألفة، ولكنها كلها دون الود قوة وشدة. فمثلا يدل لفظ الرغبة على اشتياق المحب إلى حبيبه، ولكنه لا يعني بالضرورة اشتياق الحبيب إليه أيضًا. كما أن لفظ الأُنس يتضمن معنى تولد الشوق في قلب المحب نحو حبيبه والتفات الحبيب إليه، ولكن الود يعني أكثر من ذلك، وهو أن حبهما المتبادل قد بلغ من القوة والشدة بحيث ربط الواحد بالآخر وعقدهما عقدًا.

وقد ذكر القرآن الكريم من بين أسماء آلهة الكفار اسم ﴿وُدًّا﴾(سورة نوح: ٢٤).. وذلك لزعم المشركين أن لهذا الصنم ارتباطًا قويًّا بالله تعالى كارتباط الوتد بالأرض.

بيد أن الودّ، وإن كان أقوى من الرغبة والأُنس، إلا أنه دون الخُلّة، إذ تعني الخلّة الحُبّ الذي يتخلل كل ذرة من الكيان. أما الود فلا يبلغ هذه الدرجة، ولكنه يدل على صلة ثابتة دائمة لا انفصام لها.

التفسير: لقد قال الله تعالى عن المسيح عليه السلام من قبل ﴿ولنجعلَه آيةً للناس ورحمةً منّا﴾(مريم: ٢٢).. أي سنجعله آية للناس وسبب رحمة من عندنا؛ فكأنه تعالى قد استخدم لفظ الرحمة للمسيح. بينما استخدم الله تعالى هنا للمسلمين لفظ الودّ، وهو المحبة الثابتة كالوتد كما ذُكر من قبل.

إنه لمن مزايا القرآن الكريم أنه يستعمل أحيانًا كلمات يُستنبط منها مفاهيم عديدة بالنظر إليها من زوايا مختلفة. وهذا ما فعل الله تعالى هنا أيضًا حيث قال ﴿سيجعَل لـــهم الرحمن ودًّا﴾ حيث أطلق لفظ ﴿لهم﴾ الذي يعني لفائدتهم، دون أن يحدد المجال الذي يجعل الله فيه الود لهم، وذلك لتؤدي هذه الجملة جميع المعاني المحتملة.

وعندما نتدبر من هذا المنظور في قول الله تعالى ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعَل لهم الرحمن وُدًّا﴾ يتبين لنا أنه يحتوي على الدلالات التالية: الأول أن الله تعالى سيجعل حبه في قلوب المؤمنين ثابتًا كالوتد. والثاني أنه تعالى سيجعل حب المؤمنين في قلبه ثابتًا كالوتد. والثالث أنه تعالى سيجعل حب الإنسانية في قلوب المؤمنين ثابتًا كالوتد. والرابع أنه تعالى سيجعل حب المسلمين في قلوب الناس ثابتًا كالوتد.

ولنتناول الآن هذه المعاني بشيء من التفصيل:

المعنى الأول هو أن الله تعالى سيجعل حبه في قلوب المؤمنين ثابتًا كالوتد. وبالفعل إن الذي يتدبر في نعم الله تعالى، ويرى الفيضان الواسع لرحمانية الله تعالى، ويدرس مننه ونعمه التي تخرج عن حد الإحصاء، فلا بد أن تتولد محبة الله في قلبه، وأن يسعى للتقرب إليه سبحانه وتعالى.

يقول المسيحيون أن الله تعالى قد أرسل ابنه إلى الدنيا لخلاص أهلها، فمن واجبهم أن يحبوه سبحانه وتعالى، ولكن الله تعالى يقول إني أشملكم بحبي ليلَ نهارَ. إني أنا الرحمن، وأمتّعكم برحمانيتي في كل حين وآن. ألا يمكنكم أن تحبوني برؤية هذه النعم والمنن التي أنـــزلها عليكم؟

إننا لم نر المسيح عليه السلام يموت على الصليب، ثم إنه لا دليل بيدنا على أنه علِّق من أجلنا؛ ولكنا نرى الشمس التي قد سخرها الله لنا تطلع علينا كل يوم. ونشاهد في السماء دائمًا القمر الذي جعله الله لنا. ونرى الأنهار التي قد خلقها الله تعالى تجري في الأرض. ثم إن هذه العيون التي نرى بها الأشياء لم يعطنا آباؤنا إياها، كما لم نشترِها من أي مكان، إنما هي منحة من الله تعالى وهبها لنا نتيجة رحمانيته. وبالمثل إنه تعالى منحنا اللسان الذي نتكلم به. ورزقنا الطعام الذي نأكله صباحَ مساءَ من غلال وأرز ولحم وخضار. كما أعطانا المال والصحة والعز والشرف. فإننا نشاهد بأعيننا آلاف المشاهد من رحمانية الله تعالى كل يوم، مما يجعل قلوبنا تلهف إلى الله تعالى حبًّا وشوقًا. ولكن المسيحيين يقولون لنا علينا أن نحب الله تعالى بناء على حدث لم نره قط، بدلاً من أن نحبه سبحانه وتعالى بناء على ملايين النعم والمنن الإلهية التي نشاهدها يوميًّا.

والمعنى الثاني هو أن الله تعالى سيجعل حب المؤمنين في قلبه ثابتًا كالوتد، ويكون لـــه صلة قوية بهم. وقد تجلى هذا المعنى أيضًا من خلال المسلمين. والتاريخ شاهد على أن الله تعالى كان معهم، وعاملهم بحب لا يوجد لـــه مثيل في العالم.

والمعنى الثالث هو أنه تعالى سيجعل حب الإنسانية في قلوب المؤمنين ثابتًا كالوتد. وقد دعا المسيح عليه السلام أيضًا في الإنجيل مرارًا إلى هذا التعليم نفسه وقال: أحِبّوا الناس، عاشِروهم بالبرّ والإحسان (متى ٥: ٤٤). ولكن ليس سبيل حب الإنسانية أن يؤمن المرء بكون المسيح ابنًا لله تعالى، وإنما السبيل لحب الإنسانية حقًّا أن يعتبر المرء نفسه ابنًا لله تعالى. وإنما يتأتى هذا الحب إذا بلغ المرء مقام الوُدّ، فيرتبط بالله تعالى ارتباط الحيوان بالوتد. فإذا تولد في قلبه حب الله تعالى تولد فيه حب عباده حتمًا. ولكن أنَّى لهذا الحب أن يتولد بالإيمان ببنوّة المسيح عليه السلام.

والمعنى الرابع هو أن الله تعالى سيجعل حب المسلمين في قلوب الناس ثابتًا كالوتد. هذا أيضًا نتيجة حتمية لحب الله تعالى، لأن الإنسان حين يحب الآخرين فإنه يخدمهم ويعاملهم بالحسنى ويغمرهم بحبه وحنانه؛ فيحبه الناس أيضًا. ونجد مثال حب الناس للمسلمين جليًّا في الفتوحات الإسلامية في المناطق الرومية. فمرة

تقدم جيش مسيحي عرمرم لمواجهة المسلمين، فظن المسلمون أن لا قبل لهم به، وأرادوا إخلاء تلك المنطقة، فردوا لأهلها كل ما أخذوه منهم من خراج بضمان حمايتهم. فكان لذلك وقع عظيم في قلوب القوم يهودًا ونصارى حتى جاءوا باكين ليودّعوا جنود المسلمين، وكان القسيسون والرهبان يدعون الله تعالى بأن يرجع بالمسلمين إليهم ثانية. وقد تأثر اليهود لدرجة أنهم بدءوا يحلفون بالله تعالى أنهم سينذرون أرواحهم، ولن يسمحوا للجيش المسيحي المحارب ضد المسلمين بالدخول في مدينتهم (فتوح البلدان: الجزء الأول ص ١٤٣-١٤٤).

ما أشدَّ هذا الوعظَ العَمَلي روعةً وتأثيرًا مِن وعظ المسيح بالحب! لقد قال المسيح عليه السلام باللسان فقط إن الله محبة، ولكن المسلمين قد أثبتوا بعملهم أن الله تعالى محبة. ثم إن الله تعالى قد استعمل للمسيح عليه السلام لفظ الرحمة فقال ﴿ولنجعلَه آيةً للناس ورحمةً منا﴾، بينما استخدم للمسلمين كلمة الود التي هي أشد من الرحمة، لأن الود يدل على محبة شديدة راسخة رسوخ الوتد في الأرض. فشتان بين تعليم المحبة في الإنجيل وبين تعليم المحبة في القرآن. إن بينهما ما بين الأرض والسماء.

فترى كيف بيّن الله تعالى هذا الموضوع الواسع بكلمات وجيزةً: ﴿سيجعَل لهم الرحمنُ وُدًّا﴾.

وعلاقة هذا الموضوع بقوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ الوارد في مستهل هذه الآية هي كالآتي:

أولاً: إن الإيمان والعمل الصالح يجلبان لصاحبه حبَّ الناس. لما كان من معاني الإيمان منح الأمن، فالمؤمن من يهيئ الأمن والبركة للآخرين؛ وأما العمل الصالح فهو ما يكون وفق الحاجة ومقتضى الحال؛ فالشخص الذي يتحلى بهاتين الميزتين، أي يهيئ الأمن للناس ويقوم بكل عمل بمقتضى الحال، فإن الناس يحبونه حتمًا، لأن الذي يحسن إليهم، ويحمل عنهم أعباءهم، ويعمل على النهوض بهم، ويفرج عنهم كروبهم، لا بد أن يتولد حبه في قلوبهم.

ثانيًا: من النتائج الحتمية للإيمان والعمل الصالح أن يتولد في قلب المرء حب الناس. ذلك لأن إحسانه إلى الناس جميعًا يعني حتمًا أنه يحبهم أيضًا.

ثالثًا: كما أن الذي يحب الناس لا بد أن يتولد في قلبه حب الله تعالى، شأنه شأن الذي إذا أحب ولدًا ما أبدى الحب والاحترام نحو والديه أيضًا، إذ من المحال أن يحب الولد ويكره أبويه.

رابعًا: ثم إن الذي يحب عيال الله تعالى لا بد أن يحظى بحب الله تعالى أيضًا.

قصارى القول إن الإيمان والعمل الصالح يجعلان المؤمن يحب الناس. والنتيجة الحتمية لحبه إياهم أن يحبوه أيضًا. ثم إن الذي يعامل الناس بلطف ومحبة يتولد في قلبه حب الله تعالى أيضًا؛ إذ من المحال أن تقرأ كتابًا جيدًا وتحبه ولا تحب مؤلفه؛ أو ترى رسمًا جميلاً وتحبه ولا تحب الرسام. إن الذي يحب الإنسانية لا بد أن يؤدي به حبه لها إلى حب الله تعالى، فبعد حبه لخلق الله يبدأ في حب الله نفسه. وهذا ما يسمى عند الصوفية "العشق المجازي".. أي أن يتولّد حب الله تعالى في قلب المرء نتيجة حبه للناس. ولكن قد ظن بعض المسلمين، لسوء الحظ، أن حب الجمال الظاهري يؤدي بالإنسان إلى حب الله تعالى. وهذا خطأ تمامًا. كلا، إنه ليس حب الجمال الظاهري، بل إن حب الإنسانية هو الذي يؤدي بالمرء إلى حب الله تعالى.

ثم إن الذي يحب عيال الله يخصه الله تعالى أيضًا بمحبته ومودته.

ولا تبقى بعد هذه الأمور الأربعة أية حاجة للكفارة والفداء على الإطلاق.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٨﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن الشرع ليس بلعنة، بل قد أنـــزلناه بكلمات مهذبة سهلة. لو كان الشرع غير قابل للعمل به، أو لو أننا أمرْنا الناس بما يضرهم لكان لعنة؛ ولكننا ما دمنا قد أمرناهم بما هو صالح للعمل به، وبما فيه فائدتهم، فكيف يكون الشرع لعنة؟

فبقوله تعالى ﴿فإنما يسّرْناه بلسانك لتبشّر به المتقين﴾ أخبر أننا أنـــزلناه بأسلوب مهذب سهل يفهمه المؤمنون جيدًا، كما جعلناه صالحًا للعمل به، إذ لو كان غير قابل للعمل به لما كان بشارةً، بل كان إنذارًا. فكيف يصح إذًا اعتبار الشرع لعنة؟

ثم قال الله تعالى ﴿وتُنذِر به قومًا لُدًّا﴾.. أي صحيح أن الذين ديدنهم الخصام والشجار لن يصدقوا به بطبيعة الحال، ولكنهم لن يؤمنوا في أي حال، سواء سميتم الشرع لعنة أو رحمة.

لقد أوضح الله تعالى بذلك أن القرآن الكريم صالح للعمل به عند كل إنسان صحيح الفطرة، وأنه رحمة وبشارة للذين يعملون به. ولكن الذي يصرّ على الإنكار عنادًا، فلا فرق عنده سواء أكان القرآن سهلاً أم صعبًا. إنه سيصر على الرفض والإنكار لأي شيء قدّمتَ أمامه، لأن ديدنه الخلاف والمعارضة. ولكن سليم الفطرة والبريء من العوج يدرك أن الشرع رحمة من الله تعالى، وأن جميع وصاياه نافعة للإنسان، وأن الله تعالى قد جعله سهلاً وقابلاً للعمل به.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

شرح الكلمات:

تُحِسُّ: حسَّ الشيءَ وبالشيء: علِمه وشعَر به وأدركَه. وأحسَّ: رأى (الأقرب). وبما أن جملة ﴿هل تُحِسّ منهم من أحد﴾ قد جاءت إزاء جملة ﴿أو تسمَع لهم رِكْزًا﴾ فاتّضح من ذلك أن ﴿تُحِسّ﴾ جاءت هنا بمعنى "ترى".

رِكْزًا: الرِّكْز: الصوت الخفيّ (الأقرب).

التفسير: يبين الله تعالى هنا أن السبب الحقيقي وراء غطرسة المسيحيين هو القوة التي يملكونها. إن اعتبارهم الشرع لعنة واختراعهم عقائد الكفارة والفداء وغيرها لأمر باطل تمامًا. إنما يريدون بذلك الانغماسَ في الملذات والتهرب من العمل

بالقوانين الإلهية. إنهم مغرورون بقوتهم ظانين أن لا زوال لهم. ولكن عليهم أن لا يغتروا بها، فكم من أمة أهلكناها قبلهم؟ هل ترون لها من أثر أو هل تسمعون لهم حتى صوتًا خفيًّا؟ أي أن آثارهم أيضًا اندرست، حتى اشتبه تاريخهم، وانمحت أعمالهم كلية، حتى اختفت آثار وجودهم أيضًا. فإذا كان الأولون قد اختفوا من صفحة الوجود تمامًا، فليتذكر هؤلاء القوم أننا قد سبق أن أعلنّا لهم ﴿إما العذابَ وإما الساعةَ﴾.. أي أن الذين قد قدّرْنا لهم العذاب سيذوقونه ليؤمنوا بعد ذلك بالله الواحد الأحد، وأما الذين قد كتبنا لهم الساعة أي الدمار الشامل فسيدمَّرون تدميرًا حتى لن يُرى لهم ولا لأعمالهم من أثر. فالإيمان هو الغالب حتمًا، وسينمحي أثر الكفر من صفحة العالم للأبد.